سُورَةُ التَّكْوِيرِ

حِينَ يَنْطَفِئُ الْعَالَمُ وَيَسْتَيْقِظُ الْيَقِينُ،

تأليف: رَدَّاد السَّلَّامِيُّ

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

حِينَ يَنْطَفِئُ الْعَالَمُ وَيَسْتَيْقِظُ الْيَقِينُ

تأليف: رَدَّاد السَّلَّامِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

حين يُطوى المشهد لتنكشف الحقيقة

ليست سورة التكوير حديثًا عن نهاية العالم بقدر ما هي هدمٌ للصورة التي استقرّ بها العالم في وعينا؛ فنحن لا نعيش الأشياء كما هي فحسب، بل كما ألفناها: شمسٌ تشرق كل صباح، ونجومٌ معلّقة في علٍ، وجبالٌ تبدو كأنها أقدم من الزمن وأشدّ منه بقاءً، وبحارٌ تحدّ اليابسة، وسماءٌ تحرس في أعيننا انتظام الوجود، وأرضٌ نعبرها مطمئنين إلى أنها تحت أقدامنا اليوم كما كانت بالأمس وستكون غدًا. ثم تأتي هذه السورة القصيرة، فلا تناقش هذا الاطمئنان، ولا تستأذنه، وإنما تدخل عليه كريح القيامة، فتنتزع منه مسلّماته واحدةً واحدة: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾؛ وكأن القرآن يريد أن يقول للإنسان منذ أول السورة: لا تجعل ثبات المشهد من حولك حجةً على دوامِه، ولا تجعل انتظام الأشياء يغريك بأن تنسى اليد التي أمسكت نظامها، فإن الكون الذي ألفت صلابته ليس قائمًا بذاته، وإنما قائم بأمر الله، فإذا جاء الأمر الآخر تغيّر كل شيء.

وسرّ التأثير في سورة التكوير أنها لا تبدأ بالإنسان، بل تبدأ بالعالم الذي يحيط بالإنسان؛ لأن من أعظم أسباب غفلة الإنسان أن الأشياء المحيطة به تبدو مستقرة أكثر مما ينبغي، فيحسب الاستقرار خلودًا، والتكرار ضمانًا، والعادة عهدًا أبديًا. تشرق الشمس فينسى أنها مخلوقة، ويرى الجبال فينسى أنها محمولة بالقدرة، وينظر إلى السماء فينسى أنها بناء له أجل، ثم يبني داخل هذا الكون المؤقت طموحًا يتصرف كأنه خالد. فتأتي القيامة في السورة لا

بوصفها حادثة تقع في نهاية التاريخ فقط، بل بوصفها حقيقةً يجب أن تعيد الآن ترتيب وعي الإنسان بالتاريخ والحياة والمصير، فالذي يعلم أن الشمس ستُكوَّر لا يعبد ضوءها، والذي يعلم أن الجبال ستُسيَّر لا يتكئ بقلبه على جبال الأرض، والذي يعلم أن الصحف ستُنشر لا يستخف بسطرٍ يكتبه في صحيفة عمره.

ولهذا فإن سورة التكوير لا تسوق مشاهد القيامة لمجرد إيقاظ الخوف، بل لتصحيح موازين الوجود في النفس. إنها تنتزع من الأشياء مهابتها الزائفة لتعيد المهابة إلى الله وحده؛ فالشمس التي ملأت الأفق نورًا تُطوى، والنجوم التي بدت بعيدة منيعة تنكدر، والجبال التي ضُرب بها المثل في الثبات تُسيّر، والوحوش التي تفرقت بطبائعها تُحشر، والبحار التي فرّقت القارات تُسجّر، والسماء التي كانت سقفًا محفوظًا تُكشط. وفي كل مشهد تنهار مرتبة من مراتب الاعتماد النفسي على العالم، حتى يبقى القلب في نهاية هذا الانقلاب الهائل أمام الحقيقة المجردة: لا شيء في الوجود يملك أن يبقى إلا بإبقاء الله له، ولا شيء يمتنع على التحول إذا جاء أمر الله.

غير أن السورة لا تترك القارئ أمام كونٍ يتداعى ثم تمضي؛ فبعد أن تنقلنا من الشمس إلى النجوم، ومن الجبال إلى العشار، ومن الوحوش إلى البحار، تتحول فجأة من انهيار العالم الخارجي إلى انكشاف العالم الأخلاقي داخل الإنسان: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾. وهنا تبلغ السورة منعطفًا مدهشًا؛ فالكون كله يُقلب لكي تظهر قيمة عملٍ بشري ربما ظنّه صاحبه قد ضاع في ركام التاريخ. طفلة دُفنت في التراب ولم يكن لها في ميزان مجتمعها وزن، فإذا بالكون يُطوى، والسماء تُكشط، والجحيم تُسعّر، ثم يُفتح ملف تلك الروح الصغيرة: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾. وما أبلغ هذا الانتقال: إن العالم قد ينتهي، لكن المظلمة لا تضيع، وقد تسقط

الشمس، لكن قطرة الدم لا تسقط من علم الله، وقد تنطفئ النجوم كلها، لكن الحق لا ينطفئ.

وهذه واحدة من أعظم دلالات السورة التي سنحاول استنطاقها في هذا الكتاب: أن القيامة ليست فزعًا كونيًا فحسب، بل هي يوم استعادة المعنى. في الدنيا تختلط الأحجام، يكبر الظالم بما يملك، ويصغر المظلوم بما فُقد منه، وتملأ القوةُ المشهد حتى يبدو الحق هامشيًا، ثم تأتي الآخرة فتنهار هندسة الدنيا كلها، ويعاد بناء المشهد على ميزان آخر: لا تُسأل الموءودة عن ذنبٍ اقترفته، بل يُستدعى سؤال الجريمة نفسها: بأيِّ ذنبٍ قُتلت؟ وحينها نكتشف أن القيامة ليست انهيار النظام، بل ظهور النظام الأعمق الذي كانت الدنيا تخفي بعض وجوهه.

ثم تبلغ المشاهد غايتها في الجملة التي تكاد تختصر الرحلة الإنسانية كلها: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾. لم يقل: علم الناس ما فعلوا فحسب، وإنما جعل المسألة مواجهةً فردية خالصة: نفس. لقد انتهت الجموع، وضاعت الضوضاء، وتكسّرت الألقاب، وزالت الحواجز التي كان الإنسان يختبئ خلفها، ولم يبق إلا هو وما أحضر. والتعبير بـ ﴿مَا أَحْضَرَتْ﴾ بالغ الدلالة؛ فكأن أعمالنا ليست أشياء انقضت، وإنما مسافرون معنا يسيرون في أثرنا حتى يصلوا إلى ذلك اليوم. ما فعلناه أمس لم يمت؛ لقد سبقنا إلى موعد. وما نسيه القلب لم تنسه الصحيفة. وما حسبناه لحظة عابرة قد نجده حاضرًا أمامنا حضورًا لا يسمح بالإنكار.

ومن هنا تنتقل السورة انتقالًا بديعًا من صدق اليوم الآخر إلى صدق الوحي الذي يخبر عنه. فكأن سؤالًا خفيًا قد ينشأ في النفس بعد هذه المشاهد: من أين لمحمد ﷺ بهذا الخبر؟ فتأتي الإجابة بالقسم الكوني الآخر: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾. وحين يصف القرآن الصبح

بأنه يتنفس، نشعر أن العالم الذي كان قبل قليل ينهار في مشاهد القيامة يعود هنا هادئًا نابضًا، ولكن لا يمنح الإنسان الطمأنينة القديمة نفسها، بل ليشهد للوحي. النجوم والليل والصبح لم تعد مجرد مظاهر طبيعية؛ أصبحت شواهد في محكمة الحقيقة.

ولهذا تتكون السورة من حركتين متكاملتين: حركةٍ تهدم ثقة الإنسان المطلقة بالعالم المحسوس، وحركةٍ تبني ثقته بالوحي. في مطلعها ترى الشمس التي كانت أوضح الأشياء وهي تُكوَّر، وفي آخرها تسمع القرآن الذي كان المكذبون يتهمونه فتراه هو الثابت. كأن السورة تقلب مفهوم الوضوح: ما تراه بعينيك الآن سيتغير، وما يخبرك به الوحي مما لا تراه هو الذي سيقع. وهنا تتأسس المعرفة الإيمانية على ميزان عميق: ليس كل غائب موهومًا، وليس كل حاضر دائمًا، وما أخبر الله به أوثق من دوام الأشياء التي تلمسها اليد وتراها العين.

وسنتعامل في هذه الصفحات مع سورة التكوير على هذا الأساس؛ لن نجعلها سلسلة منفصلة من الصور المرعبة، بل سنحاول اكتشاف هندستها الشعورية والفكرية، وكيف تتحرك بالقلب من أمن العادة إلى رهبة المصير، ومن رهبة المصير إلى مسؤولية العمل، ومن مسؤولية العمل إلى الثقة بمصدر الخبر، ومن صدق الرسول المَلَكي إلى صدق الرسول البشري ﷺ، ثم من حقيقة القرآن إلى السؤال الأخير الذي يضع كل قارئ أمام إرادته: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

وسنقف عند الألفاظ لا لنستنفد احتمالات اللغة، ولكن لنرى كيف يخدم اللفظ حركة المعنى: لماذا كُوِّرت الشمس ولم يقل ذهبت؟ ولماذا انكدرت النجوم؟ وما الذي تضيفه صورة الجبال حين سُيِّرت؟ وما سر ذكر العشار في ذلك اليوم، وهي أنفس أموال العرب

وأشدها تعلقًا بالقلب؟ ولماذا حُشرت الوحوش؟ ولماذا كان السؤال للموءودة لا للقاتل في هذه الصياغة المزلزلة؟ ولماذا نُشرت الصحف بعد ذكر تلك الجريمة؟ وكيف يكشط القرآن السماء كأنها غطاء كان يحجب الحقيقة؟ ثم كيف تلتقي الجحيم المسعرة والجنة المزلفة على حافتي مصير واحد ينتظر الإنسان؟

وسننتبه كذلك إلى الإيقاع؛ لأن التكوير ليست سورةً تُقرأ بالمعاني العقلية وحدها. فيها سرعة تكاد تلاحق النفس: كُوِّرت، انكدرت، سُيّرت، عُطّلت، حُشرت، سُجّرت، زُوّجت، سُئلت، نُشرت، كُشطت، سُعّرت، أُزلفت. أفعال مبنية للمجهول تتوالى كأن قوةً لا تُرى في العبارة لكنها حاضرة في كل فعل تقلب العالم كله. ولا يحتاج السياق أن يكرر اسم الفاعل؛ لأن القلب يعرفه. من ذا الذي يستطيع أن يكوّر الشمس، ويسير الجبال، ويسجر البحار، ويكشط السماء، ويسعّر الجحيم، ويزلف الجنة إلا الله؟ إن غياب الاسم في ظاهر الجملة يزيد حضوره في الوعي؛ فكل فعل يشير إليه، وكل انقلاب يشهد بقدرته.

وفي المقابل، حين تنتقل السورة إلى الوحي، يتباطأ المشهد قليلًا، ويبدأ التعريف الدقيق: رسول كريم، ذو قوة، عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين. وكأن السورة بعد أن فجّرت العالم أمامنا تريد أن تبني سند المعرفة حجرًا حجرًا؛ من الله إلى جبريل، ومن جبريل إلى محمد ﷺ، حتى لا يبقى في القلب موضع لاتهام القرآن بالظن أو الجنون أو الوسوسة. ثم تقطع الطريق على كل فرية: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾. ولفظة صاحبكم وحدها تحمل حجةً تاريخية ونفسية كبيرة؛ إنه ليس رجلًا هبط عليكم من مجهول، بل صاحبكم الذي عرفتم عقله وصدقه وخلقه وسيرته قبل الرسالة، فكيف صار في زعمكم مجنونًا حين جاءكم بما يزعج أصنام أفكاركم ومصالحكم؟

وحين تقترب السورة من نهايتها تتحول من مشاهد الكون والوحي إلى المخاطَب نفسه: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾. وليس في القرآن سؤال كثير الكلمات هنا؛ لأن الإنسان بعد كل ما سبق لم يعد يحتاج إلى محاضرة، بل إلى أن يُوقف في الطريق ويسأل: إلى أين؟ إنها كلمة تواجه حركة الحياة كلها. أنت ذاهب على كل حال؛ العمر ذهاب، واليوم ذهاب، والأنفاس ذهاب، ولكن القضية ليست: هل ستذهب؟ بل: أين تذهب؟ وما الطريق الذي تحملك إليه اختياراتك؟

ثم يأتي تعريف القرآن: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾، فتظهر غاية الوحي في كلمة واحدة: الاستقامة. ليست الغاية أن يبقى الإنسان مدهوشًا من مشهد الشمس إذا كُوّرت، ولا مرتجفًا أمام النار إذا سُعرت، ولا مأخوذًا بجمال القسم إذا تنفس الصبح؛ إن كل هذا الجمال والجلال يقود إلى أثر عملي في خط السير: أن تستقيم. فبلاغة القرآن ليست زخرفة حول الحقيقة، بل قوة تدفع الإنسان إليها.

غير أن السورة، بعد أن أثبتت للإنسان مشيئته ومسؤوليته، تختم بإعادة كل شيء إلى المشيئة العليا: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. وهنا يبلغ البناء العقدي والفكري ذروته؛ فالإنسان ليس حجرًا مسلوب الإرادة، ولا إلهًا صغيرًا مستقلًا بإرادته، وإنما عبد يشاء تحت مشيئة الله، ويتحرك داخل ملكه، ويطلب الاستقامة بمعونته. ومن أول السورة إلى آخرها تظل الربوبية هي الإطار الحاكم: الذي يكوّر الشمس هو الذي يملك مشيئتك، والذي يبدل نظام الكون هو الذي يهدي القلب، والذي يسعّر الجحيم ويزلف الجنة هو رب العالمين.

وسوف يكون منهجنا في هذا الكتاب قائمًا على موازنة دقيقة بين التدبر والالتزام؛ نفتح للنص أبواب التأمل، لكننا لا نحمله ما لا يحتمل، ونستخرج من مشاهده إشاراتها الإيمانية والنفسية والفكرية، دون أن نحول القرآن إلى رموز منفصلة عن معناه الذي نزل به. سنبدأ من اللفظ والسياق والنظم ومقصد السورة، ثم نسمح للتأمل أن يمتد إلى الإنسان والحياة والوعي والتاريخ؛ لأن القرآن كتاب هداية، والهداية لا تبقى حبيسة المعجم، بل تنتقل من معنى الآية إلى بنية الروح ومن مشهد القيامة إلى طريقة الإنسان في النظر إلى صباحه العادي.

وسنحاول ألا نكرر ما قاله المفسرون بصياغة أدبية فحسب؛ فما نريده ليس تلخيص تفسير، وإنما صحبةٌ تدبرية مع السورة، نستفيد فيها من ميراث التفسير واللغة والبيان، ثم ننظر إلى الآيات من نافذة السؤال الإنساني المتجدد: ماذا تفعل هذه الآية بإنسان يظن أنه يملك غده؟ ماذا تقول لمن أثقلته الدنيا حتى صارت أكبر من الآخرة في قلبه؟ ماذا يفعل مشهد الموءودة بوعينا بالعدالة؟ وكيف يعيد قوله تعالى ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ تعريف المسؤولية؟ وكيف يحررنا سؤال ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ من الحياة التي تتحول إلى حركة بلا وجهة؟

إننا أمام سورة من تسعٍ وعشرين آية، لكنها تحمل من الانقلاب ما يكفي لإسقاط عالم كامل داخل الإنسان ثم بنائه من جديد. تبدأ بالشمس حين تفقد ضوءها، وتنتهي بالإنسان حين يكتشف أن مشيئته نفسها تحت سلطان رب العالمين. وبين هذين الطرفين تقع رحلة مذهلة: الكون ينهار، والضمائر تُكشف، والضحايا يُنصفون، والصحف تُفتح، والسماء تُنزع، والجحيم تظهر، والجنة تقترب، ثم يقف القرآن في وسط هذا كله شاهدًا لا يتزعزع.

إن سورة التكوير لا تريد منا أن نعرف فقط كيف ينتهي العالم؛ بل أن نعرف، قبل أن ينتهي، كيف ينبغي أن نعيش فيه.

فمن عرف أن الشمس ستُكوَّر، لم يجعل الدنيا شمسه الأخيرة.

ومن عرف أن الصحف ستُنشر، استحيا أن يملأها بما يكره أن يراه منشورًا.

ومن عرف أن الموءودة ستُسأل، أدرك أن الله لا ينسى وجعًا سكت عنه التاريخ.

ومن عرف أن الجنة تُزلف، لم يرَ الطاعة خسارةً ولو كلّفته شيئًا من عاجل الدنيا.

ومن سمع السؤال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾، لم يعد يستطيع أن يعيش بلا قبلةٍ لمعنى حياته.

ومن قرأ آخر السورة: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، عرف أن أعظم ما يطلبه القلب من ربه ليس أن يملكه الدنيا، بل أن يشاء له طريق الاستقامة.

ومن هنا سنبدأ.

من اللحظة التي تُطوى فيها الشمس، لنتعلم قبل أن تُطوى أعمارنا كيف نرى.

الفصل الأول

حِينَ تَسْقُطُ ثَوَابِتُ الْعَالَمِ

تدبر في قوله تعالى:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾

تدخل سورة التكوير إلى القلب من الباب الذي لا يكاد الإنسان يحرسه: باب الأشياء التي ظنّها ثابتة. لا تبدأ السورة بإنذار مباشر للإنسان، ولا بذكر قبره، ولا بصحيفته، ولا بحسابه، وإنما تبدأ بما هو أبعد منه وأكبر في عينه: بالشمس. وكأن القرآن يعلم أن الإنسان قد يجادل في نفسه، وقد يخادع ضميره، وقد يؤجل التفكير في موته، ولكنه يقف عاجزًا أمام مشهد الكون إذا تبدل؛ ولذلك لا تقول له السورة في أول لحظاتها: إنك ميت، بل تقول له شيئًا أشد وقعًا على الوهم الذي يختبئ خلفه: حتى الشمس التي تراها كل صباح ليست باقية.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

كلمة واحدة تكفي لهدم تاريخ طويل من الاعتياد.

هذه الشمس التي لم يعرف الإنسان يومًا من أيام حياته عالمًا بلا ضوئها، والتي ضبط بها أوقاته، وعرف بها صباحه ومساؤه، وزرع على دفئها، وسافر على نورها، وأقام حول طلوعها وغروبها مفاهيم الزمن؛ ستأتي عليها ساعة لا تعود فيها كما عرفها. والمشهد لا يقول إن سحابة حجبتها، ولا إن كسوفًا مر بها ثم انقشع، بل يستعمل لفظًا يحمل معنى الجمع واللف والذهاب

بالنور: كُـوِّرت. كأن المصـباح الأكـبر الذي ملأ الدنيا ضـياءً قـد انتهى دوره وطُـويت صفحته.

وهنا يبدأ القرآن في تحرير الإنسان من عبادة المألوف.

فليس أخطر على القلب أن يعبد صنمًا من حجر فقـط، بـل قـد يعبـد ثبـات الأشـياء دون أن يشعر؛ يطمئن إلى ما اعتاد وجوده حتى يتعامل معه كما لو كان ضرورة أزلية. وقد لا يسـجد للشمس، لـكنه قد يسجد في باطنه لقانون العـادة الذي يقـول له: غدًا يشبه اليـوم، والأشـياء ستظل في مواضعها، والعمر ما يزال طويلًا، والنظام الذي أعرفه سيظل قائمًـا. فتـأتي سـورة التكوير وتكسر هذه الوثنية الخفية: ليس في الكون شيءٌ يملك أن يضمن لنفسه لحظةً واحدة وراء مشيئة الله.

إن الشـمس هائلة في عين الإنسـان، لـكنهـا في ملك الله مخلوق مـأمور؛ تشرق بأمره، وتسـير بأمره، وتُكوّر بأمره. وما يراه الإنسان فوق رأسه عملاقًا لا يقهر هو أمام القدرة الإلهية عبدٌ من عباد الله لا يتقدم عن أجله ولا يتأخر.

وهذا أول تصحيح تبنيه السورة في النفس: الحجم ليس دليل الاستقلال.

قد يكون الشيء أعظم منك بملايين المرات، ومع ذلك يكـون أفقـر إلى الله منـك ومن كل شيء.

ولذلك فإن المؤمن حين ينظر إلى الشمس لا يراها فقط مصـدرًا للحرارة والضـوء، وإنمـا يقـرأ فيهـا حقيقـة العبوديـة الكونيـة؛ هـذا الجـرم الذي لـو اقـترب من الأرض مقـدارًا لا تحتمله لاحترقت الحياة، ولو ابتعد عنها اختـل دفؤهـا، لا يقـرر لنفسـه موقعه ولا مـداره ولا أجله.

وفي كل صباح يبدو المشهد عاديًا لأننا تكررنا نحن أمامه، لا لأنه عادي في ذاته. وما أكثر المعجزات التي تقتلها الألفة في أعيننا.

ثم تنتقل السورة إلى أعلى:

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾.

إنه سقوط آخر، لا لضوء قريب هذه المرة، بل لأنوار بعيدة بدت للإنسان معلقة في السماء منذ أقدم ذاكرته. النجوم التي كانت علامات للهداية في ظلمات البر والبحر، والتي رفعت إليها الحضارات أبصارها، وبنت حولها حساباتها وأساطيرها، تفقد في ذلك اليوم انتظامها وبريقها.

والتكوير والانكدار ليسا صورتين منفصلتين؛ إنهما بداية محو الخريطة التي كان الإنسان يعرف بها العالم.

لا شمس كما عرف، ولا نجوم كما ألف.

كأن القيامة لا تهدم الأشياء فحسب، بل تهدم وسائل الإنسان في الاهتداء داخل عالمه القديم، لأن العالم القديم نفسه انتهى. كل العلامات التي كنت تستدل بها على الاتجاه صارت جزءًا من المشهد المنهار، فلا شرق بالمعنى الذي تعرفه، ولا غرب، ولا ليل يستدل بنجمه، ولا صباح ينتظر شمسه. لقد انتهى زمن الجغرافيا، وبدأ زمن المصير.

وهنا معنى شديد الصلة بحياة الإنسان قبل القيامة: كم من إنسان يجعل لنفسه نجومًا يهتدي بها ثم يكتشف أنها تنكدر؟ شخصٌ علّق عليه حياته، أو مالٌ ظنه عصمة، أو منصبٌ حسب أنه سيحفظ مكانته، أو شهرةٌ بنى عليها وجوده، أو قوةٌ سياسية أو اجتماعية اعتقد أنها لا

تزول. وما يفعله مشهد القيامة بالأجرام الكبرى تفعله الأيام في أصنام البشر الصغيرة: كم من نجم لمع في أعين الناس ثم خبا، وكم من قوة بدت كأنها قدر ثم أصبحت خبرًا في كتاب التاريخ.

ليس المقصود أن نزهد في الأسباب أو نسقط قيمة الموجودات، بل أن نضعها في رتبتها: الأسباب أسباب، وليست أربابًا.

ثم تأتي الجبال:

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾.

هنا تبلغ الصدمة طبقة أخرى من الوعي. فالشمس بعيدة، والنجوم أبعد، أما الجبل فهو جزء من الأرض التي نقف عليها؛ إنه صورة الثبات القريبة من الجسد. وحتى في اللغة البشرية إذا أراد الناس وصف رجل بالصلابة قالوا: كالجبل. وإذا أرادوا تصوير الثبات استعاروا الجبل. ثم تأتي القيامة لتجعل رمز الثبات نفسه في حركة: سُيِّرت.

ما الذي يبقى في القلب من وهم الثبات إذا تحرك الجبل؟

السورة لا تكتفي بأن تقول للإنسان إن الأشياء ستزول، وإنما تختار له الأشياء التي بنى عليها قاموسه في الدوام ثم تنزع منها صفاتها. الشمس التي هي رمز الإشراق تُكوّر، والنجوم التي هي مصابيح السماء تنكدر، والجبال التي هي عنوان الرسوخ تُسيّر. إن القرآن لا يهدم الموجودات فحسب؛ إنه يهدم الدلالات النفسية التي ارتبطت بها.

وهنا يمكن أن نفهم شيئًا عميقًا من التربية القرآنية: إن الله يريد للقلب أن يكون أثبت من الجبل، ولكن لا بذاته، وإنما بربه. فالجبل نفسه سيُسيّر، أما القلب الذي آمن بالله فيعرف أن ثباته لا يستمده من الأرض التي تحته، بل ممن خلق الأرض والجبال جميعًا.

كم من إنسان انهار لأن الجبل الذي أسند إليه روحه تحرك: فقد أبًا، أو أمًا، أو زوجًا، أو مالًا، أو وطنًا، أو عملًا، أو مكانةً، فشعر أن الكون قد انتهى. والقرآن لا يستهين بالحزن ولا يطلب من الإنسان أن يكون حجرًا، ولكنه يربيه على ألا يجعل شيئًا من المخلوقات هو الأساس الأخير الذي إذا زال زال معه معنى الحياة، لأن كل ما عدا الله قابل للغياب.

وهذه السورة، في شدة مشاهدها، تمنح المؤمن طمأنينة من وجه خفي: إذا كان الله يخبرك أن الجبال نفسها ستُسيّر، فهو يعلّمك ألا تطلب الخلود مما كُتب عليه الفناء.

ثم يحدث انتقال بالغ الدقة من الكون إلى الإنسان، ولكن عبر أكثر الأشياء التصاقًا بقلب الإنسان:

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾.

والعِشار جمع عُشَراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، وكانت عند العرب من أنفس الأموال وأشدها قيمة وعناية. إنها ليست مجرد إبل في المشهد، إنها الثروة في أعلى درجات حضورها النفسي. وما كان أحد ليتركها بغير رعاية في الحالة العادية، لأنها رأس مال، ومورد عيش، وموضع حرص. فإذا جاء ذلك اليوم عُطِّلت، لا لأن قيمتها الاقتصادية تغيرت تدريجيًا، بل لأن مفهوم القيمة كله قد انهار أمام هول أعظم.

وهنا تكشف السورة وهمًا إنسانيًا بالغ الرسوخ: الأشياء ليست ثمينة بذاتها دائمًا، إن السياق هو الذي يمنحها كثيرًا من قيمتها.

قطعة ذهب قد تكون موضع اقتتال في سوق، ثم تقع من يد إنسان يغرق في البحر فلا يلتفت إليها.

وصكوك الملكية التي تشعل الخصومات في الدنيا تصبح أوراقًا لا معنى لها لحظة الموت.

والمركبة التي ينظفها صاحبها كل صباح قد يتركها مفتوحة الباب إذا بلغه أن بيته يحترق وفي داخله طفله.

حين يظهر الأعلى رتبةً، تسقط قيمة الأدنى.

وهذا ما تفعله القيامة بكل اقتصاد الدنيا: تجعل الإنسان يرى الأشياء بأحجامها الحقيقية. لم تعد الناقة النفيسة نفيسة حين صار الإنسان يبحث عن نفسه، ولم يعد المال مالًا حين انتهت الأسواق، ولم تعد الممتلكات ممتلكات حين طُويت الأرض التي كانت تحمل حدودها وعقودها.

وكم يحتاج الإنسان إلى شيء من هذا الوعي قبل القيامة.

ليس المطلوب أن يعطل أمواله، وإنما ألا تتعطل روحه بسبب أمواله.

ليس المطلوب أن يهمل مصالحه، وإنما ألا تتحول المصلحة إلى إله باطني يقرر له ما يحب وما يكره وما يخاف وما يرجو.

فالمال الذي جعله الله في اليد قد يفسد الإنسان حين يصعد من اليد إلى القلب.

وسر التعبير بـ ﴿عُطِّلَتْ﴾ أنه يرسم الفراغ حول الشيء النفيس؛ هو موجود، لكن لا أحد يلتفت إليه. وهذه صورة تستحق أن يقف أمامها كل من أفنى عمره في جمع ما سيأتي يوم لا يجد فيه أحد وقتًا لينظر إليه.

أي خسارة أكبر من أن يبذل الإنسان حياته كلها من أجل شيء سيعطله حين يحتاج إلى نتيجة حياته؟

ثم تتغير طبيعة المشهد:

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾.

تلك المخلوقات التي كانت طبيعتها التفرق والهرب والتوحش تُجمع. وكأن القيامة لا تقلب الأجرام فحسب، بل تقلب المألوف في طبائع الكائنات. الوحش الذي كان يفر من الوحش، والمفترس الذي يطلب فريسته، والمخلوقات التي وزعتها الغرائز في الشعاب والبراري، إذا بها تدخل في حشر يبدد انتظام عالم الحيوان كما بددت المشاهد السابقة انتظام عالم السماء والأرض.

وما أشد دلالة الحشر هنا على سلطان الأمر الإلهي.

إن الله لا يحتاج إلى شبكة تجمع الوحوش، ولا إلى جدران تحاصرها؛ يكفي أن يأتي أمره فيجتمع ما كانت طبائعه تقوم على التفرق. فمن يتأمل هذا يعرف أن القدرة التي تجمع الوحوش من مجاهل الأرض لن يعجزها أن تجمع عظام الإنسان بعد أن يصير تراباً.

وقد كان إنكار البعث في جوهره ناتجًا عن قياس قدرة الله على قدرة البشر؛ يرى الإنسان الجسد يتفرق في الأرض فيقول: من يجمعه؟ وينسى أن السؤال نفسه بُني على تصور ناقص للفاعل. لو كان الجامع إنساناً لجاز السؤال عن الوسيلة والقدرة، أما إذا كان الفاعل هو الذي أنشأ الأشياء أول مرة فإن الإعادة ليست معضلة.

والعجيب أن السورة لا تدخل هنا في جدل فلسفي عن إمكان البعث، بل تعرض مسرح القدرة نفسه. الشمس تكوّر، النجوم تنكدر، الجبال تسير، الوحوش تحشر، ثم يصبح سؤال: كيف يبعث الإنسان؟ سؤالًا صغيرًا بعد كل هذا.

وهذه إحدى طرائق القرآن العظيمة في بناء اليقين: لا يناقش الشبهة داخل حجمها الذي صنعه الوهم، وإنما يوسّع أمام القلب صورة الله وقدرته حتى تصغر الشبهة من تلقاء نفسها.

ثم تختم هذه الحلقة من المشاهد بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

والبحر في وعينا نقيض النار، ماء واسع، وبرودة وسيولة، ثم يأتي التعبير الذي يحمل معاني الإيقاد والامتلاء والاضطرام بحسب ما ذكره أهل التفسير في دلالة التسجير، فإذا بالمشهد يجمع في لحظة واحدة ما كانت النفس تستبعد اجتماعه.

ولعل في ذلك من أعمق دروس القيامة: أن قوانين العالم التي ألفها الإنسان ليست قيودًا على خالق العالم.

نحن نعرف الماء بهذه الصفات لأن الله أجراه عليها، ونعرف النار بهذه الصفات لأن الله خلقها عليها، فإذا شاء سبحانه في ذلك اليوم أن يقلب أحوال الموجودات لم يكن ما نسمّيه "طبيعة الأشياء" مانعًا من أمره؛ فالطبيعة نفسها مخلوقة.

ولهذا فإن أعظم الخطأ أن يحوّل الإنسان السنن إلى آلهة. نعم، للعالم قوانين وسنن جارية، والعاقل يتعامل معها ويأخذ بها، ولكن المؤمن يعرف أن السنن ليست مستقلة عن واضعها، وأن انتظامها علامة حكمة لا قيد قدرة.

كم تبدو الآيات الست الأولى وكأنها زلزال يضرب طبقات الوعي واحدة بعد أخرى:

الشمس: مصدر الضوء.

النجوم: علامات السماء.

الجبال: عنوان الثبات.

العشار: عنوان المال.

الوحوش: عالم الغريزة.

البحار: موازين الطبيعة.

كل شيء يدخل في الانقلاب.

وليس هذا الترتيب عبثًا؛ فالسورة تكاد تحاصر الإنسان من كل جهة حتى لا تترك له شيئًا من عالمه القديم يختبئ وراءه. فوقه الشمس والنجوم، وتحته الأرض والجبال، وفي معيشته المال، وفي البرية الوحوش، وعلى أطراف اليابسة البحار. لقد تبدلت الجهات كلها.

لكن السؤال الذي ينبغي أن يتولد في القلب ليس: ما الذي سيحدث للعالم فقط؟

بل: ما الذي ينبغي أن يحدث لي أنا قبل أن يحدث ذلك للعالم؟

إذا كان القرآن قد أخبرني مسبقًا بانهيار كل هذه الثوابت، فلماذا أعيش كما لو كانت أبدية؟

لماذا أبيع ما يبقى بما يفنى؟

لماذا أخاف على رزقي أكثر مما أخاف على قلبي؟

لماذا أرتعد أمام بشر سيقف مثلي في ذلك اليوم بلا جبل يحميه ولا مال يعصمه؟

لماذا أتنازل عن الحق من أجل دنيا يخبرني الله كيف ستنتهي؟

إن مشاهد القيامة ليست صورًا للمستقبل فقط، إنها موازين للحاضر.

فالذي يتذكر تكوير الشمس حين تغريه الدنيا يعرف أن لمعان الأشياء لا يعني دوامها.

والذي يتذكر تسيير الجبال حين يتكئ على قوة من قوى الأرض يعرف أن كل قوة مخلوقة قابلة للزوال.

والذي يتذكر تعطيل العشار حين يفتنه المال يعرف أن الثروة قد تبقى في مكانها ويأتي على الإنسان وقت لا تنفعه.

والذي يتذكر حشر الوحوش وتسجير البحار يعرف أن هذا الكون كله تحت أمرٍ لا يعجزه شيء.

وهكذا تصنع السورة في القلب شيئًا أعمق من الخوف: تصنع حريةً من هيمنة العالم.

فالإنسان لا يكون حرًا حقًا حين يمتلك أشياء كثيرة، بل حين لا تملكه الأشياء.

ولا يكون قويًا لأنه يقف على جبل، بل لأنه يعرف رب الجبل.

ولا يكون آمنًا لأن الشمس أشرقت اليوم، بل لأن قلبه تعلق بمن جعل لها الشروق والأفول.

وفي أول ست آيات من سورة التكوير يحدث هذا التحرير العظيم: يُسحب البساط من تحت كل ما حسبه الإنسان ثابتًا، لا ليُترك معلقًا في الفراغ، بل ليتهيأ للمشهد الأعظم الذي سيأتي بعد قليل؛ فحين تنتهي الأشياء التي شغلت الإنسان، يبدأ ظهور الشيء الذي كان ينبغي أن يشغله منذ البداية:

نفسه.

بعد انهيار السماء والأرض والمال والطبيعة، ستلتفت السورة إلى ما كان يجري في داخل التاريخ الإنساني نفسه: النفوس، والموءودة، والصحف، والجحيم، والجنة.

وسيكتشف الإنسان عندها أن المشكلة لم تكن يومًا في أن العالم زائل؛ فقد كان زائلًا منذ أن خُلق.

المشكلة كانت في أن يعيش الإنسان في الزائل كأنه لا يزول.

وأن يعامل المؤقت كأنه أبدي.

وأن يمنح المخلوق من قلبه ما لا ينبغي أن يكون إلا للخالق.

فإذا جاءت القيامة لم تخلق الحقيقة، بل كشفتها.

وكان أول ما كشفت:

أن كل ما حسبناه ثابتًا كان قائمًا بأمر الله وحده.

الفصل الثاني

حِينَ تُفْتَحُ مَلَفَّاتُ الْإِنْسَانِ

تدبر في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾

بعد أن تهدم سورة التكوير العالم من حول الإنسان، تبدأ في هدم آخر حصونه: وهمُه بأن أفعاله مضت وانتهت. كانت الشمس قد كُوِّرت، والنجوم انكدرت، والجبال سُيِّرت، والعشار عُطِّلت، والوحوش حُشرت، والبحار سُجِّرت؛ أي إن المشهد الخارجي كله قد فقد صورته التي عرفها الإنسان، ولم يعد ثمة كون مألوف يستر القلب عن الحقيقة. وهنا، في اللحظة التي تسقط فيها الأشياء الكبرى، يبدأ الإنسان يرى الشيء الذي ظل يهرب منه طويلًا: نفسه، وما صنعت، وما تركت، وما أخفت، وما حسبت أن الأيام دفنته تحت طبقات النسيان.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

تتراجع في هذا اليوم العلائق التي صنعها الناس في الدنيا، وتظهر رابطة أعمق: كل نفس مع ما يلائم حالها وعملها ومصيرها، ويُضم بعض الخلق إلى بعض على ما تقتضيه حكمة الله وعدله. لم تعد الأنساب وحدها هي التي تصنع الجوار، ولا البيوت، ولا المدن، ولا

الوظائف، ولا الطبقات الاجتماعية؛ فاليوم يوم الحقيقة، والحقيقة لا تسأل الإنسان: مع من كنت تُرى؟ بل: من كنت في باطنك؟ ماذا أحببت؟ ماذا صدقت؟ ماذا صنعت؟

كم من إنسان عاش في الدنيا بين الصالحين ولم يكن منهم، وكم من آخر عاش غريبًا بينهم وبين أكثر الناس وكان قلبه من أهل الصدق. إن الصحبة الظاهرة يمكن أن تخدع العين، أما يوم القيامة فلا يبقى من الاجتماع إلا ما وافق حقيقة النفس.

وهنا تضع السورة يدها على سر خطير في حياة الإنسان: نحن نختار في الدنيا، من حيث نشعر أو لا نشعر، الرفقة الكبرى التي سنُحشر في معناها. فالمرء لا يصير شبيهًا بمن يحب في لحظة؛ إن المحبة المتكررة، والإعجاب المتواصل، والاقتداء المستتر، والانحياز الداخلي، كلها تنسج النفس خيطًا خيطًا حتى تجد نفسها يومًا في الصف الذي كانت قد اختارته قبل أن ترى نهايته.

ولذلك فالسؤال الذي يوقظه قوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ ليس سؤالًا عن الآخرة وحدها، بل عن القلب الآن: مع أي معنى تزوّجت روحك؟ إلى أي صف تميل حين تتعارض المصلحة والحق؟ من الذي تجد قلبك مسرورًا بانتصاره ولو كان ظالمًا؟ ولمن تحزن إذا انكسر ولو كان مبطلًا؟ فالأجساد قد تجلس في المكان نفسه، لكن النفوس تتوزع على ولاءات لا تراها العيون.

ثم، فجأة، تسحب السورة عدسة المشهد من هذا الحشد الهائل إلى طفلة صغيرة.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾.

ما أشد هذه النقلة.

الشمس أضخم من الأرض، والنجوم أبعد من أن تحصيها العين، والجبال رمز القوة، والبحار تمتد وراء الأفق، ثم وسط كل هذا الجلال الكوني تتوقف السورة عند جسد صغير دُفن ظلمًا تحت التراب.

وكأن القرآن يعلن أن في ميزان الله شيئًا أعظم من الأجرام: العدل.

تنتهي الشمس ولا ينتهي حق المظلوم.

تُكشط السماء ولا تُمحى المظلمة.

يمضي التاريخ، وتندثر القبيلة التي قتلت، ويُنسى اسم القاتل، ويختفي مكان القبر، لكن الجريمة لا تدخل منطقة النسيان عند الله.

وهذا وحده كافٍ لأن يعيد بناء تصور الإنسان للوجود كله.

فالدنيا كثيرًا ما توهمنا أن الذي لا يجد من يدافع عنه قد ضاع، وأن الجريمة التي لم تُصوَّر ولم تُوثَّق ولم يكتب عنها مؤرخ قد انتهت، وأن المظلوم إذا مات قبل أن يأخذ حقه أغلق الملف. لكن سورة التكوير تهدم هذا الوهم من جذره؛ فهناك محكمة لا تسقط منها القضية بالتقادم، ولا تحتاج إلى شاهد لم يرَ، ولا إلى وثيقة قد تُتلف، لأن الذي يفصل فيها هو الذي شهد الجريمة قبل أن يشهدها أحد.

والموءودة هنا لا تُسأل لأنها متهمة، بل سؤالها نفسه إدانة للقاتل: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾.

أيُّ ذنب يمكن أن يكون لها؟

أي جرم ارتكبته وهي لم تفتح بعد دفتر حياتها؟

إن السؤال يهز بنية الجريمة نفسها، لأنه يجرد القتل من كل ذريعة كانت الجاهلية تغلفه بها. فقد تكون القبيلة سمّت فعلتها حفظًا للعار، أو خوفًا من الفقر، أو عادةً موروثة، لكن الوحي لا يناقش لغة الجلاد التي جمّل بها فعله، يسأل من جهة الضحية: ما ذنبها؟

وهذه طريقة قرآنية عظيمة في فضح الظلم: أن ينقل مركز النظر من تبريرات القوي إلى جرح الضعيف.

فالظالم دائمًا يملك قصة يرويها عن نفسه.

يملك لغة.

ومصلحة.

وحجة.

وتاريخًا يعيد ترتيبه.

لكن المظلوم يملك سؤالًا واحدًا قد يهدم كل تلك البلاغة: ماذا فعلتُ حتى يُفعل بي هذا؟

إن قوله تعالى ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ليس مجرد استنكار لجريمة من جرائم الجاهلية القديمة، بل تأسيس لمعيار أخلاقي خالد: أن الحياة الإنسانية لا يجوز أن تصبح مادةً لأهواء الأقوياء، وأن الإنسان لا يفقد حرمة دمه لأن المجتمع تواضع على عادة ظالمة، وأن كثرة من يمارسون الجريمة لا تحول الجريمة إلى حق.

كم من فظاعة في التاريخ لبست ثوب القانون.

وكم من ظلم اكتسب هيبة العادة.

وكم من بريء سُحق لأن الجماعة كلها اتفقت على أن سحقه طبيعي.

ثم جاء القرآن ليعلن أن إجماع المجتمع على الظلم لا يغير اسم الظلم.

وهنا تتجاوز الموءودة صورتها التاريخية إلى معنى أوسع، دون أن نفصل الآية عن أصلها؛ فكل صوت ضعيف أُسكت بالقوة، وكل حياة أُزهقت بلا حق، وكل إنسان أُهدر لأنه أقل حيلةً من خصمه، يدخل في الوعي الذي تبنيه هذه الآية: أن الله لا يقيس العدالة بميزان القوة.

والأدهى في المشهد أن الموءودة لم تكن تستطيع الدفاع عن نفسها في الدنيا. لم يكن لها لسان يحاجج، ولا عشيرة تحميها، ولا مال تستعين به، ولا قلم يسجل قصتها. ومع ذلك فقد حفظ الله قضيتها في القرآن الذي يُتلى إلى قيام الساعة.

ما أعجب العدل الإلهي: ربما دفنها قاتلها ليمحو أثرها، فإذا بذكرها يبقى أبقى من ذكره.

وهذه آية لكل مظلوم أن عدم قدرتك على الكلام لا يعني أن قصتك بلا شاهد.

ثم يأتي بعدها:

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.

بعد السؤال عن الجريمة تأتي الوثائق.

وكأن السورة تنقل الإنسان من المظالم التي يراها الناس إلى حياته الشخصية كلها؛ فالصحف ليست كتاب التاريخ العام، بل سجل الإنسان نفسه. وما كان في الدنيا مطويًا ينشر، وما كان سرًّا يظهر، وما عبر عليه صاحبه مستخفًا يعود متماسكًا في سياق حياة كاملة.

إن الإنسان يعيش معظم أيامه تحت رحمة النسيان، ولولا النسيان لضاق بذاكرته. لكنه قد يسيء فهم هذه النعمة، فيظن أن ما نسيه قد انعدم. تنقضي اللحظة، فيقول: انتهت. تمر الكلمة، فيقول: ذهبت. يخون أمانة ولا ينكشف أمره، فيقول: نجوت. ينظر نظرة لا يراه فيها الناس، فيقول: مضت. يظلم قلبًا ثم تنشغل الحياة بمائة قصة جديدة، فيتوهم أن القديم قد دُفن.

لكن الصحيفة لا تعرف مفهوم: مضى وانتهى.

إنها تحتفظ بما مضى ليعود حاضرًا.

وهنا تتغير فلسفة الزمن في ضوء الآخرة: الماضي ليس ميتًا، وإنما محفوظ.

والإنسان لا يترك أفعاله وراءه، بل يرسلها أمامه.

ولهذا كان أعجب ما في الدنيا أن الناس يخافون من انكشاف بعض أعمالهم أمام بشر قد ينسون أو يعفون أو يموتون، ثم لا يخافون بما يكفي من نشر صحيفة لا يسقط منها شيء إلا بما شاء الله من مغفرة ورحمة.

كم من إنسان ينفق جهدًا كبيرًا ليحمي صورته أمام الناس، ولا ينفق القدر نفسه ليحمي صحيفته عند الله.

قد يستحي أن يراه شخص واحد على خطأ، لكنه لا يستحضر أن ما خفي عن هذا الشخص لم يخف عن ربه.

وسورة التكوير لا تريد أن تصنع إنسانًا مرعوبًا من كل حركة حتى يعجز، وإنما تصنع إنسانًا مسؤولًا، يعرف أن الحياة ليست فراغًا بلا تسجيل، وأن العمل له وزن، وأن الخير لا يضيع كما لا يضيع الشر.

وهنا يفتح نشر الصحف بابًا من الرجاء أيضًا، لا باب الخوف وحده.

فالابتسامة التي نسيتها محفوظة.

والصدقة التي أخفيتها ربما نسيتها أنت ولم تنسها الصحيفة.

والدمعة التي خرجت من خشية الله ولم يرها أحد ليست مفقودة.

والكلمة التي قوّيت بها مكسورًا قد تكون عندك أصغر من أن تذكرها، لكنها عند الله ليست صغيرة إذا صدق فيها القلب.

كما أن الصحف تُرعب العاصي، فإنها تسند المؤمن الذي فعل خيرًا ولم يصفق له أحد.

إن الآخرة تعيد القيمة إلى الأعمال التي لم تمنحها الدنيا جمهورًا.

ثم تقول السورة:

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾.

التعبير شديد القوة، كأن السماء غطاء يُنزع عن المشهد. وقد كان الإنسان في الدنيا يرفع بصره إلى أعلى فيرى سقفًا هائلًا، فضاءً ممتدًا، حاجزًا بصريًا بينه وبين عالم الغيب. فإذا جاء اليوم الآخر كُشفت الحجب، وانتهت مرحلة المعرفة التي تعتمد على الاستدلال بالغيب، وبدأت مرحلة المشاهدة.

ولعل من أعمق ما توحي به الآية أن الدنيا كلها كانت، من جهة ما، عالمًا وراء ستار.

نحن نرى الأثر ولا نرى كثيرًا من الحقيقة.

نرى جسد الميت ولا نرى ما انتقل إليه.

نرى العمل ولا نرى وزنه الأخير.

نرى الظالم منتصرًا ولا نرى خاتمة انتصاره.

نرى المؤمن ضعيفًا ولا نرى منزلته عند الله.

نرى السماء ولا نرى ما وراء اللحظة التي يكشفها الله.

ثم تأتي القيامة فتُكشط السماء، ويُكشط معها كثير من خداع الظاهر.

والحياة المؤمنة في جوهرها تدريب على أن يعيش الإنسان للحق قبل أن يُكشف الغطاء.

أن يصدق قبل أن يرى.

أن يستقيم والسماء ما تزال في موضعها.

أن يرفض الظلم قبل أن يرى الجحيم.

أن يطلب الجنة قبل أن تزلف.

وهذه هي قيمة الإيمان: أن يبني الإنسان اختياره على خبر الله قبل أن تتحول الغيبيات إلى مشاهد لا يستطيع أحد إنكارها.

ثم:

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾.

إنها لم تعد خبرًا يُتلى، بل مصيرًا حاضرًا.

والتسعير يفيد الإيقاد والإلهاب، وكأن النار التي حذر منها الوحي في الدنيا تبلغ ظهورها الكامل في الآخرة. وهنا تنتهي قدرة الإنسان على تحويل المعنى الديني إلى مجرد فكرة ثقافية أو موضوع للجدل. لقد كان يستطيع في الدنيا أن يناقش النار، أو يغفل عنها، أو يؤجل التفكير فيها، أو يمر على ذكرها سريعًا، أما الآن فقد صارت أمامه.

والقرآن حين يذكر الجحيم لا يفعل ذلك ليزرع الرعب المجرد، وإنما ليعيد إلى الأخلاق جديتها.

فلو لم يكن للظلم نهاية، لتحولت العدالة إلى أمنية أدبية.

ولو استوى القاتل بالمقتول، والخائن بالأمين، والمتكبر بالمتواضع، ومن أفنى عمره في الفساد بمن قاوم فساد نفسه، لكان الوجود الأخلاقي عبثًا.

لكن الجحيم تقول: لا.

ليست الأعمال متساوية.

وليست الخيارات بلا عواقب.

وليس الشر مجرد رأي مختلف.

إن في الكون عدلًا سيظهر، ولو تأخر ظهوره.

ومثلما لا ينبغي للمؤمن أن يتعامل مع الجحيم بخفة، لا يجوز له أيضًا أن يجعلها موضوع شماتة في الخلق، فالذي فهم النار حقًا خافها لنفسه ورق قلبه للناس. المعرفة الحقيقية بالجحيم لا تصنع متعاليًا، بل عبدًا يتضرع أن ينجو ويحب للخلق الهداية.

ثم يأتي المشهد المقابل:

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾.

ما أعجب الانتقال من نار تُسعّر إلى جنة تُقرّب.

الجحيم تشتد، والجنة تقترب.

وهنا لا يبقى الحساب مجرد خوف من الخسارة، بل يتحول إلى شوق إلى الفوز. فالله الذي حذّر عباده من النار لم يترك قلوبهم معلقة بالرعب، بل فتح أمامهم الأفق الآخر: الجنة ليست بعيدة في ذلك اليوم عن أهلها؛ إنها أُزْلِفَتْ.

واللفظ نفسه يحمل قربًا عاطفيًا يكاد القلب يشعر به.

بعد طول الطريق.

بعد مجاهدة النفس.

بعد مقاومة الإغراء.

بعد صلوات ربما أداها الإنسان وهو متعب.

بعد دموع لم يعلم بها أحد.

بعد عفو كان صعبًا.

بعد صدقة انتزعها من حب المال.

بعد كلمة حق كلفته شيئًا.

بعد صبر حسبه الناس ضعفًا وكان عند الله عبادة.

تقترب الجنة.

وهذا القرب يعيد تفسير كل مشقة عاناها المؤمن في سبيل الاستقامة. فما كان يراه في الدنيا حرمانًا قد يظهر يومئذ حماية، وما ظنه فواتًا قد يتبين أنه نجاة، وما تركه لله قد يجده هناك قد عاد إليه في صورة لا تشبه حسابات الدنيا.

وفي الجمع بين ﴿سُعِّرَتْ﴾ و﴿أُزْلِفَتْ﴾ تظهر حقيقة الاختيار: المصائر ليست مبهمة، والطريق ليس بلا وجهة. الإنسان يتقدم كل يوم، ولو ظن أنه ثابت، إلى واحد من هذين الأفقين.

وهنا، بعد اثني عشر مشهدًا متتابعًا بدأت بالشمس وانتهت بالجنة، تأتي الجملة التي كان كل شيء يمهد لها:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾.

هنا يصل الإيقاع كله إلى غايته.

كل "إذا" السابقة كانت تنتظر هذا الجواب.

إذا كورت الشمس.

إذا انكدرت النجوم.

إذا سيرت الجبال.

إذا عطلت العشار.

إذا حشرت الوحوش.

إذا سجرت البحار.

إذا زوجت النفوس.

إذا سئلت الموءودة.

إذا نشرت الصحف.

إذا كشطت السماء.

إذا سعرت الجحيم.

إذا أزلفت الجنة.

ماذا يحدث في النهاية؟

تعلم النفس ما أحضرت.

ليست الغاية النهائية من هذه الزلزلة الكونية أن يشاهد الإنسان قوة الحدث، بل أن يشاهد حقيقة نفسه.

وكأن الكون كله يتغير لكي يزول آخر عذر بين الإنسان وبين معرفته بما فعل.

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يجهل نفسه بمهارة عجيبة. يسمي بخلَه حذرًا، وجبنَه حكمة، وحسدَه نقدًا، وتكبرَه اعتزازًا بالنفس، وقسوته حزمًا، وتعلقه بالدنيا حسن تدبير. نحن لا نرتكب الأخطاء فقط؛ أحيانًا نعيد تسميتها كي نستطيع العيش معها.

أما هناك، فلا توجد معاجم للخداع الذاتي.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾.

العلم صار كاملًا بما لا يدع للنفس طريقًا إلى التهرب.

ثم لم يقل: ما فعلت، بل:

﴿مَا أَحْضَرَتْ﴾.

وهذه الكلمة وحدها قادرة على تغيير نظرتنا إلى العمر.

أنت لا تمضي إلى الله وحدك.

كل يوم ترسل شيئًا إلى موعدك.

كل كلمة يمكن أن تكون رفيقًا قادمًا.

كل موقف.

كل نظرة.

كل ظلم.

كل إحسان.

كل صلاة.

كل خيانة.

كل عفو.

كل باب خير فتحته.

كل شر تركته وراءك في حياة الآخرين.

نحن لا نودع الأعمال حين نفعلها؛ نحن نُحضرها إلى مستقبلنا.

وحين يدرك الإنسان ذلك يتغير معنى اللحظة الصغيرة؛ لأن أبسط لحظة قد تحمل مادةً من مصيره. إن الحياة ليست في حقيقتها عدد السنوات التي مرت، وإنما نوع الأشياء التي نحضرها معنا من تلك السنوات.

وقد يعيش رجل ثمانين عامًا ولا يحضر منها إلا القليل من الخير، وقد يعيش آخر زمنًا أقصر لكنه يملأ الطريق بأعمال لا تموت.

ليس طول البقاء هو السؤال.

السؤال: ماذا أحضرت؟

ولعل هذا من أشد الأسئلة التي يمكن للمرء أن يسألها لنفسه مساء كل يوم: لو انتهت حياتي الآن، فما الذي أحضرته من هذا اليوم؟

هل ازداد في صحيفتي شيء أستحي منه أم شيء أرجو أن ألقى الله به؟

هل خففت ألم إنسان أم كنت سببًا في ثقله؟

هل نظفت قلبي من ضغينة أم غذيتها؟

هل اقتربت خطوة من الله أم أضعت يومًا آخر وأنا أؤجل الاقتراب؟

وهنا يتحول الإيمان بالقيامة من خبر عن مستقبل بعيد إلى آلية يومية للمراجعة.

فالذي ينتظر نشر الصحف يبدأ بتنظيف صحيفته من الآن.

والذي يعلم أنه سيعرف ما أحضر، يحاسب نفسه قبل أن يُكشف له الحساب كاملًا.

والذي يعلم أن الجنة ستُزلف لا يستكثر طريقًا إليها.

والذي يعلم أن الجحيم ستُسعّر لا يستخف بذنب فقط لأنه صار مألوفًا بين الناس.

والذي سمع سؤال الموءودة يعرف أن حقوق العباد ليست تفصيلًا صغيرًا في الدين، بل ملفًا قد يفتح يوم انهيار الكون كله.

وهذا هو الانقلاب العميق الذي تصنعه هذه الآيات: إنها تنقل مركز الاهتمام من ما أملك إلى ما أُحضر.

والفرق بينهما هائل.

ما أملك سيبقى هنا.

ما أحضر سيأتي معي.

البيت يبقى.

الحساب المصرفي يبقى.

الألقاب تبقى في ملفات الأرض.

المناصب تجد من يجلس فيها بعدك.

حتى اسمك يبدأ بعد أجيال في الخفوت.

لكن عملك لا يتقاعد من صحبتك.

يمضي معك.

وهكذا، بعد أن قالت السورة في الفصل السابق إن كل ما حسبته ثابتًا سيتغير، تقول هنا: وهناك شيء حسبته عابرًا سيبقى.

إنها مفارقة القيامة الكبرى:

العالم الذي ظننته دائمًا يزول، والعمل الذي ظننته زائلًا يحضر.

وما بين هاتين الحقيقتين يتحدد عقل المؤمن.

لا يخدعنه لمعان الزائل.

ولا يستخفن بأثر الباقي.

وحين يستقر هذا الميزان في القلب، تبدأ الحياة كلها في إعادة ترتيب نفسها، لا يعود السؤال الأول: ماذا سأحصل؟ بل: ماذا سأقدم؟ لا يعود النجاح أن أخرج من الدنيا بأكبر نصيب منها، بل أن أصل إلى الله بصحيفة أرجو أن أُسر بنشرها.

ولذلك لم تقل السورة بعد تلك المشاهد: علمت نفس ما خسرت من أموالها، ولا ما تركت من بيوتها، ولا من بقي بعدها يذكرها.

كل هذه الأسئلة سقطت.

ولم يبق إلا:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾.

هذه هي لحظة سقوط الأقنعة كلها.

وحين يعرف الإنسان ذلك قبل أن تأتي اللحظة، يكون قد فُتح له باب من أعظم أبواب النجاة:

أن يعرف الآن، قبل أن يعرف هناك.

الفصل الثالث

حِينَ يَشْهَدُ الْكَوْنُ لِصِدْقِ الْوَحْيِ

تدبر في قوله تعالى:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾

بعد أن أخذتنا السورة إلى المشهد الذي تتكسر فيه صورة الكون، وتنتشر فيه الصحف، وتُكشط السماء، وتُسعّر الجحيم، وتُزلف الجنة، ثم انتهت إلى تلك الوقفة الفردية المهيبة: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾، كان يمكن أن يتولد في قلب المكذب سؤال آخر: ومن أين جاء محمد ﷺ بهذا النبأ كله؟ وما الذي يضمن أن هذا التصوير الهائل للقيامة ليس خيالًا، أو شعرًا، أو اضطرابًا من اضطرابات النفس، أو قولًا بشريًا ارتدى ثوب القداسة؟

وهنا لا تترك السورة السؤال يتكاثر في الظلام، بل تنتقل انتقالًا محسوبًا من المخبر عنه إلى مصدر الخبر، ومن مشهد القيامة إلى وثاقة الوحي، ومن مصير الإنسان إلى الطريق الذي عرف الإنسان به ذلك المصير.

فتقول:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾.

وهذه الألفاظ تحمل في أصلها صورة كونية حية؛ أجرام تجري ثم تختفي عن الأبصار، تظهر في أفلاكها وتغيب، وتتحرك في نظام لا يراه الإنسان كاملًا وإن رأى بعض آثاره. والقرآن يوجّه البصر مرة أخرى إلى السماء، لكن بعد أن هدم وهم خلودها في مطلع السورة.

هناك كانت النجوم تتكدر.

وهنا تصبح بعض أجرام السماء مادة للقسم.

وكأن السورة تقول: إن الكون الذي سيتبدل يوم القيامة هو نفسه، ما دام قائمًا الآن، شاهدٌ على صدق الخبر الذي يخبركم بتبدله.

وهذه من دقائق البناء القرآني؛ فالسورة لا تفصل بين الآخرة والوحي، ولا بين الكون والرسالة. الكون كتاب منظور، والوحي كتاب مسموع، ولا ينبغي أن يتناقضا في قلب المؤمن لأن كليهما صادر عن إرادة واحدة. ومن خلق الأفلاك هو الذي أنزل القرآن، ومن أجرى النجوم في مسالكها هو الذي يجري الوحي في طريقه من السماء إلى قلب الرسول ﷺ.

وما أعجب أن يقسم الله بحركة أجرام قد لا يدرك الإنسان دقائقها كلها، ليقرر حقيقة لا يستطيع الإنسان أن يدركها بذاته إلا بالوحي.

إن في ذلك تربية معرفية بالغة العمق: ليس شرطًا لكي يكون الشيء حقًا أن تحيط أنت بكل تفصيلاته، فقد ترى أثر النظام ولا تدرك كنهه، وترى الحركة ولا تحيط بجميع قوانينها، ومع ذلك لا تنكر وجودها. وكذلك عالم الغيب؛ لم يُطلب منك أن تخترعه بعقلك، بل أن تتلقاه ممن يعلم السر وأخفى.

فالإنسان الذي يعترف بحدود معرفته في السماء أولى به أن يعترف بحدودها في الغيب.

ثم تنتقل الآيات من حركة تلك الأجرام إلى مشهد أقرب إلى حس الإنسان:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾.

الليل هنا ليس مساحة زمنية باردة، بل كائن في حركة؛ يقبل أو يدبر، ويتنفس المشهد من خلال لفظة تحمل معنى الامتداد والتحول. إن القرآن لا يقول: والليل حين يكون ليلًا، وإنما يلتقط اللحظة التي يكون فيها الزمن نفسه في حركة بين حالتين.

ثم يقول:

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

ومن أبدع صور القرآن هذه الصورة التي لا تكاد تحتاج إلى تفسير حتى يشعر بها القلب. الصبح لا يجيء فحسب؛ إنه يتنفس. كأن الظلام كان صدرًا مطبقًا على العالم، ثم بدأ الضوء يخرج منه نفسًا بعد نفس، وتتمدد الحياة في الأفق شيئًا فشيئًا.

والمتأمل في ترتيب المشهد يرى أن السورة التي بدأت بتكوير الشمس لا تزال قادرة بعد ذلك على أن تجعل الصباح شاهدًا للحق.

هناك كان الحديث عن نهاية الضوء.

وهنا عن ولادته كل يوم.

وفي كليهما تتجلى القدرة نفسها.

فالذي يجعل الصبح يتنفس قادر على أن يجعل الشمس تُكوّر حين يأتي أجلها.

والذي ينقل العالم من ظلمة الليل إلى إشراق النهار قادر على أن ينقل الخلق من قبورهم إلى يوم الحساب.

إن شروق كل صباح، من زاوية الإيمان، ليس تكرارًا ساذجًا، بل برهان قدرة يتجدد.

وما أفسد إحساس الإنسان بالوجود مثل اعتياده على المعجزة.

نفتح أعيننا صباحًا فلا نندهش.

يعود الضوء إلى الأشياء فلا نستغرب.

تظهر ألوان العالم من ظلمة واحدة فنمضي إلى أعمالنا كما لو أن شيئًا لم يحدث.

لكن القرآن يوقظ الحاسة التي أفسدها التكرار: انظر إلى الصبح وهو يتنفس.

فليس المطلوب أن نعيش مندهشين من الطبيعة لمجرد الدهشة، وإنما أن تعيدنا الدهشة إلى الخالق.

ولعل اختيار الصبح هنا يحمل معنى مناسبًا للغاية لما سيأتي من الحديث عن الوحي؛ فالوحي نفسه يشبه الصبح في عالم المعنى. كانت الجاهلية ليلًا كثيفًا من الوثنية والظلم واضطراب القيم، ثم تنفس القرآن في هذا الظلام، آية بعد آية، حتى بدأت ملامح الإنسان والعالم تظهر على حقيقتها.

ولا يعني هذا أن لفظ الآية موضوع أصلًا لهذا الرمز، لكن التأمل في التناسب بين الصورة والسياق يفتح القلب على معنى جميل: كما أن الصبح يكشف الأشياء بعد اختبائها في العتمة، فإن الوحي يكشف حقائق الوجود بعد اختلاطها في عتمة الجهل.

وما أشد حاجة الإنسان إلى نور لا يصنعه بنفسه.

فالعقل عظيم، لكنه قد يبرر ما يهواه.

والتجربة نافعة، لكنها محدودة بعمر الفرد والمجتمع.

والتاريخ معلّم، لكنه كثيرًا ما يعيد أخطاءه.

والفلسفة تفتح الأسئلة، لكنها لا تملك وحدها خبر الآخرة.

كان لا بد أن يأتي نور من خارج حدود الإنسان، لا يلغي عقله بل يهديه، ولا يحتقر تجربته بل يضعها في موضعها، ولا يطفئ السؤال بل يرده إلى بوصلة لا تضل.

ولهذا يأتي جواب القسم:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

وهنا يجب أن يُفهم التعبير على وجهه الصحيح؛ فالمراد بالرسول الكريم في هذا السياق جبريل عليه السلام، الذي بلّغ الوحي عن الله إلى محمد ﷺ. فالقرآن كلام الله، ووصفه بأنه قول رسول كريم إنما هو من جهة التبليغ والأداء، كما يقال: قال الرسول ما بلغه عن مرسله، لا أنه أنشأه من عند نفسه.

وهذا التفصيل العقدي مهم؛ لأن السورة تبني سلسلة الوثوق بالوحي، وتعرّفنا بالواسطة التي حملته من السماء.

إنه رسول.

أي ليس مستقلًا برسالة من ذاته.

وهو كريم.

صفة تجمع شرف المنزلة ونقاء المقام.

ثم تأتي الصفات في نسق شديد الإحكام:

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾.

ليس حامل الوحي كائنًا ضعيفًا قد تختلط عليه الرسالة أو يعجز عن حملها. القوة هنا أول ضمانات الأداء في المشهد؛ لأن الرسالة العظمى تليق بحامل قوي.

ثم:

﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾.

ما أعجب هذه الإضافة.

لم يصفه بالقوة فقط، بل بالمكانة.

القوة بلا مكانة قد تكون قوة مخلوق بعيد، والمكانة بلا أمانة لا تكفي، ولذلك تتكامل الصفات تباعًا.

إنه ذو منزلة عند الله، وذِكر العرش يرفع المعنى إلى غاية الجلال، من غير أن يخرج بنا عن تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به؛ فنثبت ما أثبته الوحي على الوجه اللائق بالله، من غير تمثيل ولا تكييف، ونقرأ السياق في دلالته: إن حامل هذا الوحي ليس مجهول المصدر، وإنما هو رسول كريم ذو مكانة عظيمة عند ربه.

ثم:

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾.

له طاعة في الملأ الأعلى.

وهنا ترتفع صورة الوحي في القلب ارتفاعًا كاملًا: هذه الكلمات التي يسمعها المشرك من فم محمد ﷺ في مكة لها امتداد إلى عالم أعلى، وراء الضجيج الأرضي كله.

كم كان المشهد مفارقًا!

رجل في مكة يُكذّبه قومه، وربما ضحكوا منه أو اتهموه، بينما الخبر الذي جاء به مرَّ في سلسلة من الشرف والقدرة والطاعة والأمانة.

وهنا يعلّم القرآن المؤمن ألا يقيس قيمة الحقيقة بعدد المصفقين لها على الأرض.

قد تكون كلمة الحق غريبة في مجلس، وهي مكرمة عند الله.

وقد يسخر منها جمهور، ولا تنقص سخرية الجمهور من حقيقتها شيئًا.

وقد يكون حاملها ضعيفًا في ميزان السياسة أو المال، لكن ذلك لا يغير أصلها إذا ثبتت من الله.

إن القرآن لا يستمد سلطانه من مزاج الناس، ولا من قبول السوق، ولا من تصفيق الثقافة السائدة.

إنه وحي.

وهذه الكلمة وحدها تعيد ترتيب مركز السلطة في قلب المؤمن.

فلا يصبح السؤال: هل يروق هذا العصر للآية؟

بل: كيف نعيد نحن أنفسنا إلى ميزان الآية؟

ولا يكون السؤال: هل يقبل الناس حكم الله؟

بل: هل عرفنا حكم الله حقًا، وفهمناه في سياقه، واستسلم القلب له بعدما تبين؟

ثم تأتي الصفة التي تكمل البناء:

﴿أَمِينٍ﴾.

وهنا يبلغ سند الوحي ذروته.

القوة تمنع العجز.

المكانة تمنع الهوان.

الطاعة تدل على رفيع المقام.

والأمانة تمنع الخيانة والتبديل.

وهكذا لا يترك القرآن ثغرةً في ذهن من يريد أن يتشكك في قناة النقل السماوي.

جبريل عليه السلام ليس مجرد ناقل قوي، بل أمين.

والأمانة هنا ليست فضيلة فرعية، بل أساس الرسالة.

لأن الوحي لو مرّ عبر واسطة غير مأمونة لوقع السؤال في أصل البلاغ.

لكن الله يقرر أن الواسطة أمينة، ثم ستنتقل الآيات بعد ذلك إلى إثبات أمانة المبلِّغ البشري محمد ﷺ من جهة نفي التهمة عنه وتقرير رؤيته للملك.

ونحن هنا أمام معنى له أثر عظيم في كل خطاب ديني: الحقيقة لا تكفي وحدها إذا خانها حاملها.

إن الأمانة شرط في حمل المعنى.

وكم من فكرة صحيحة أساء إليها من حملها.

وكم من دين عظيم شوّهه في عين الناس سوءُ أخلاق بعض المنتسبين إليه.

وكم من كلمة حق دخل عليها الكذب في الطريقة فضعف أثرها.

ولذلك فإن اجتماع القوة والأمانة في حامل الرسالة نموذج تربوي باقٍ: القوة وحدها قد تصنع بطشًا، والأمانة بلا قدرة قد تعجز عن الأداء، أما الرسالات الكبرى فتحتاج إلى من يجمع صفاء اليد إلى قوة الحمل.

ومن هنا يمكن أن نقرأ هذه الآيات قراءة تتجاوز مجرد الدفاع عن صدق الوحي إلى بناء أخلاق الإنسان الذي يريد أن يحمل شيئًا من هداية الوحي للناس.

فليس حامل القرآن حقًا من يكثر من ألفاظه ثم يخون معانيه في سلوكه.

ولا يكفي أن يكون بليغًا إذا لم يكن أمينًا.

ولا أن يكون مشهورًا إذا لم يكن مستقيمًا.

ولا أن يملك منابر واسعة إذا كان قلبه يطلب ذاته أكثر مما يطلب الحق.

إن الرسول الملكي وُصف بالأمانة قبل أن تُذكر في السياق البشري كل تلك الخصومات، وكأن الوحي يعلّمنا أن عظمة الرسالة تضع على حاملها عبئًا أخلاقيًا لا يخف.

ثم إن انتقال السورة من مشاهد القيامة إلى مشاهد الليل والصبح والوحي يكشف عن هندسة بديعة في البناء كله.

في القسم الأول، كان الكون موضوعًا للانهيار.

وفي هذا القسم صار الكون شاهدًا للخبر.

هناك الشمس تكوّر والنجوم تنكدر.

وهنا الأجرام تجري والليل يتحول والصبح يتنفس.

وكأن السورة تجمع حالتي الكون في قبضة واحدة: نظامه الآن، وانقلابه غدًا، وكلاهما يشهدان لله.

فالكون لا يكون دليلًا على الله حين يكون جميلًا فقط؛ حتى زواله دليل.

الانتظام دليل.

والانقلاب دليل.

الحياة دليل.

والموت دليل.

الشروق دليل.

والتكوير دليل.

وليس الإيمان أن نرى الله في النعمة ثم نفقد بوصلة المعنى عند تغيرها، بل أن نعرف أن رب الصبح هو رب الليل، وأن رب البناء هو رب الهدم، وأن الحكمة لا تختفي لمجرد أن المشهد صار مخيفًا.

ولهذا فقد يكون الإنسان قريبًا من الله في صباح رخائه، ثم تأتيه ليلة المحنة فيظن أن العالم تغير مالكه. والسورة تعلمه وحدة الربوبية عبر اختلاف المشاهد؛ الذي جعل الصبح يتنفس هو نفسه الذي يأذن للشمس أن تُكوّر.

لا إله للرخاء وإله للمحنة.

ولا رب للابتداء ورب للنهاية.

إنه الله وحده، رب العالمين.

ومن أجمل ما يستفاد من هذا القسم أن اليقين لا يُبنى على الصدمة وحدها.

بعد مشاهد التكوير والانكدار والتسيير والتسعير كان يمكن للقلب أن يبقى في رهبة عاطفية هائلة، لكن القرآن لا يريد قلبًا خائفًا بلا معرفة؛ ولذلك انتقل فورًا إلى تثبيت مصدر الحقيقة.

وهذه قاعدة قرآنية جليلة: الشعور يحتاج إلى أصل معرفي يحفظه من الانحراف.

قد يبكي الإنسان من منظر مهيب، لكن البكاء لا يكفي لبناء العقيدة.

وقد يخاف من الموت، لكن الخوف وحده قد يصنع خرافةً كما قد يصنع إيمانًا.

ولهذا يربط القرآن الرهبة بالوحي.

لا يكفي أن ترتجف.

اعرف لماذا ترتجف.

ومن الذي أخبرك.

وعلى أي أساس صدقته.

فالمؤمن ليس شخصًا خُوِّف حتى استسلم، بل إنسان عرف مصدر الخبر، وعرف صدق الرسول، وعرف أن لهذا الكون خالقًا، ثم استجاب للحق بقلبه وعقله معًا.

وهذا من الفروق الكبرى بين الإيمان والخرافة.

الخرافة تخاف من الغيب لأنها تجهله.

أما الإيمان فيصدق بالغيب لأنه تلقى خبره من الله.

والخرافة تضيف إلى العالم قوى وهمية متنازعة.

أما القرآن فيرد الوجود كله إلى رب واحد.

والخرافة تعطل العقل.

أما الوحي فيضع العقل في موضعه الصحيح: يستدل، ويتأمل، ويميز، لكنه لا يدعي علم ما لم يُعط علمه.

ولذلك فإن هذه الآيات ليست حشوًا بين حديثين عن القيامة والرسول ﷺ، بل هي جسر معرفي شديد الأهمية: لقد رأيتَ المستقبل في الوحي، والآن تعرَّف إلى أمانة الطريق الذي حمل إليك خبره.

ومن ثم فإن كل من أراد أن يقرأ سورة التكوير باعتبارها مجرد شعرية مدهشة لمشاهد القيامة فقد فاته نصف بنائها.

السورة لا تريد أن تدهشك فقط.

إنها تريد أن تؤسس يقينك.

وما قيمة الصورة إذا لم تقدك إلى الحقيقة؟

وما قيمة بلاغة تهز القلب ثم لا تعرّفه بالحق الذي من أجله اهتز؟

إن الصبح في الآية جميل، لكن جماله يقود إلى القسم.

والقسم يقود إلى صدق الرسالة.

وصدق الرسالة يقود إلى مسؤولية الإنسان.

وهكذا يصبح الجمال القرآني جسرًا إلى الهداية، لا زينة معلقة على أطراف النص.

بل لعل من أعظم أسرار هذا الأسلوب أن القرآن يجعل القلب يحب الطريق الذي يقوده فيه، فلا يضع الحقيقة في قالب جاف، وإنما يريكها وهي تتحرك في النجوم والليل والصبح، ثم يضعها في جملة محكمة:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

كأن الكون كله كان يمهد لهذه الكلمة.

ومع ذلك، لم تنته القضية.

فقد ثبتت في هذه الآيات أمانة الرسول المَلَكي، لكن بقي المكذبون أمام الرجل الذي يسمعون منه القرآن مباشرة: محمد ﷺ.

لقد اتهموه.

وقالوا فيه ما قالوا.

وحاولوا أن يحولوا الرسالة إلى عيب في شخص حاملها حتى يفروا من مواجهة مضمونها.

وهنا ستدخل السورة في دفاع بالغ القوة والبساطة معًا عن النبي ﷺ، لا بخطاب عاطفي مجرد، بل بحجة يعرفها خصومه قبل أصحابه:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.

إنه صاحبكم.

تعرفونه قبل الوحي.

تعرفون عقله.

تعرفون لسانه.

تعرفون سيرته.

فكيف صار عندكم مجنونًا في اللحظة التي جاءكم فيها بما لا تشتهون؟

وهنا سنصل إلى واحدة من أعمق مفارقات التكذيب:

أن الإنسان قد لا يرفض الحقيقة لأنها غامضة، بل لأنها واضحة أكثر مما يحتمل هواه.

الفصل الرابع

حِينَ يُحَاكِمُ التَّكْذِيبُ نَفْسَهُ

تدبر في قوله تعالى:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾

بعد أن عرّفت السورة بحامل الوحي من الملأ الأعلى، وبنت حول جبريل عليه السلام سياجًا من صفات القوة والمكانة والطاعة والأمانة، تنزل الآن إلى الأرض؛ إلى الرجل الذي تلقّى هذا الوحي وبلّغه للناس، إلى محمد ﷺ الذي وقف في مكة لا يحمل جندًا ولا سلطانًا ولا خزائن، وإنما يحمل كلماتٍ كانت أقوى من أن تتحملها البنية الفكرية والأخلاقية للجاهلية من غير مقاومة. وهنا تبدأ السورة بتفكيك التهم التي حاول المكذبون أن يجعلوها ستارًا بينهم وبين القرآن؛ لأن من عجز عن إسقاط الحجة قد يحاول إسقاط حاملها، ومن ضاقت به الحقيقة قد يفر منها إلى الطعن في صاحبها.

فتقول:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.

إنها جملة قصيرة، لكنها تكاد وحدها أن تكون محاكمة كاملة للاتهام.

لم يقل: وما محمد بمجنون، مع أن المعنى صحيح، وإنما قال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾.

والصحبة هنا حجة.

إنه الرجل الذي عاش بينكم، ولم يهبط عليكم من مجهول.

رأيتم صباه.

وعرفتم شبابه.

وخبرتم حديثه.

وعرفتم صدقه وأمانته.

ولم تحفظوا عليه اضطراب عقل، ولا تفكك قول، ولا سلوك من فقد ميزان نفسه. ثم لما جاءكم بوحي يخلخل أصنامكم ويكشف ظلمكم ويضع الغني والفقير تحت ربوبية واحدة، صار عندكم مجنونًا؟

ما الذي تغير فيه، أم الذي تغير هو موقفكم من كلامه؟

وهنا يفضح القرآن آلية نفسية قديمة متجددة: حين يعجز الإنسان عن مواجهة الفكرة قد يحاول تشخيص صاحبها بدل مناقشتها.

يقول: هذا مجنون.

أو حاقد.

أو مأجور.

أو باحث عن شهرة.

أو مضطرب.

فتتحول القضية من: هل ما قاله حق؟ إلى: ما الذي نظنه به؟

وهذه من أقدم وسائل الهروب من الحقيقة.

فالطعن في القائل أسهل من تفكيك قوله.

والسخرية من الشخص أخف كلفة من مراجعة الذات.

لكن القرآن يعيدهم إلى الوقائع التي يعرفونها: هو صاحبكم.

إن كلمة واحدة تعيد ذاكرة كاملة إلى طاولة المحاكمة.

وهنا ينبغي أن نتأمل شيئًا مهمًا في طبيعة النبوة: إن الله لم يجعل الرسالة تهبط في فراغ تاريخي، بل جعل حاملها معروفًا لقومه قبل أن يُكلَّف ببلاغهم، حتى تصبح حياته السابقة جزءًا من الشهادة لصدقه. لم يكن محمد ﷺ يطلب مكانة بين قومه بالكذب، ثم جاء يدعي الوحي، ولم يكن صاحب تناقضات تثير الريبة، بل عرفوه في الجاهلية بما يناقض التهمة التي رموه بها بعد البعثة.

إن من عجيب مفارقات الباطل أن الإنسان قد يشهد للحق ما دام الحق لا يطالبه بشيء، فإذا طالبه بالتغيير انقلب على شهادته القديمة.

قد يمدحون صدق الرجل حتى يقول لهم كلامًا يجرح مصالحهم.

ويحبون حكمته حتى تكشف حكمته سفههم.

ويحتفون بنزاهته حتى يصبح من لوازم النزاهة أن يسمعوا منه ما لا يشتهون.

وهكذا يتبين أن أزمة المكذبين لم تكن دائمًا نقص الدليل، بل في أحيان كثيرة عجز النفس عن دفع ثمن الإقرار بالدليل.

فالإقرار بمحمد ﷺ رسولًا لم يكن في مكة معلومة فكرية محايدة، كان يعني إسقاط الأصنام، وتغيير بنية الولاء، ومراجعة المال والظلم والجاه، والتسليم بأن التفاضل لا يصنعه النسب ولا السلطان، بل التقوى. ولذلك كان أسهل على بعضهم أن يقول: مجنون، من أن يقول: صدق، ثم يهدم العالم الذي بنى عليه مكانته.

وهنا يلتقي التكذيب بالدفاع النفسي عن المصالح.

فالإنسان لا يرفض الفكرة دائمًا لأنها ضعيفة، بل ربما رفضها لأنها قوية إلى الحد الذي يهدد حياته القديمة.

ثم تقول السورة:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾.

والمراد أنه ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها، في مشهد يؤكد أن الأمر ليس خواطر نفسية ولا خيالات داخلية، وإنما لقاء حقيقي بوحيٍ من خارج الذات البشرية.

وهنا تضرب الآية جذور تفسير نفسي باطل للنبوة.

لم يكن القرآن تصاعدًا من أعماق محمد ﷺ، ولم تكن الرسالة صوتًا داخليًا غامضًا لبس عليه حتى ظنه وحيًا؛ لقد رأى رسولَ الوحي، وتلقى عنه، وعرفه.

والتعبير بـ ﴿الْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ يحمل في نفسه معنى الوضوح والاتساع. كأن السورة تواجه اتهام الجنون بمشهد بالغ الجلاء: لم يكن الأمر شبحًا في زاوية معتمة، بل رؤية على الأفق المبين.

وهذه مناسبة مدهشة لما تفعله السورة من أولها؛ فهي سورة كشف.

تكشف نهاية الشمس.

وتكشف الصحف.

وتُكشط فيها السماء.

ثم تقول هنا: الأفق مبين.

وفي كل ذلك مقاومة للغشاوة التي يصنعها الإنسان حين لا يريد أن يرى.

فالحقيقة قد تكون واضحة، لكن الهوى يضع عليها ضبابه الخاص.

وهذا من أعقد أمراض المعرفة: ليست المشكلة دائمًا أن الدليل غائب، أحيانًا تكون المشكلة أن الرغبة في عدم الاقتناع أشد من وضوح الدليل.

ولذلك لا يكفي الإنسان أن يمتلك عينين، يحتاج إلى قلب يريد أن يرى.

كم من إنسان يطلب برهانًا، فإذا جاءه طلب برهانًا على البرهان، لا لأن المسألة غامضة، بل لأن الاعتراف بها سيُلزمه بشيء.

وحين يبلغ الجدل هذه المرحلة لا يعود البحث عن الحقيقة هو القضية، بل البحث عن مهرب منها.

وقد كانت حياة النبي ﷺ، وبلاغته، وأمانته، ومضمون القرآن، وتماسك الرسالة، كلها تضع المكذب أمام سؤال لا يستطيع أن يمحوه بالاتهامات. فجاءت السورة لتسقط التهمة الأولى: ليس مجنونًا، ثم تثبت حقيقة تلقيه: لقد رأى جبريل عليه السلام.

ثم تقول:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.

وقد قُرئت بالضاد: ﴿بِضَنِينٍ﴾، أي: بخيل، وقُرئت بالظاء: ﴿بِظَنِينٍ﴾، أي: بمتَّهَم، وهما قراءتان متواترتان، وكلتاهما تزيد معنى أمانة الرسول ﷺ وضوحًا.

وهذه الجملة تكشف وجهًا آخر من وجوه النبوة: السخاء بالهداية.

لقد حمل محمد ﷺ رسالة لم يعاملها كملكية شخصية.

لم يقل: هذه المعرفة رفعت مقامي، إذن أحتفظ بها لنفسي.

ولم يجعل الوحي سرّ طبقة مغلقة يتوارثها رجال مخصوصون خلف الأبواب.

ولم يجعل الهداية امتيازًا يباع للناس.

لقد بُعث ليبلغ.

والرسالة التي جاءت للعالمين لا يجوز لحاملها أن يضن بها على العالمين.

كم تحمل هذه الآية من معنى إذا قرأناها في زمن تتحول فيه المعرفة أحيانًا إلى أداة احتكار، ويصبح بعض الناس حريصًا على أن تبقى الحقيقة مرتبطة باسمه ومكانته! أما النبوة فجوهرها البلاغ، كلما ازداد حامل الرسالة يقينًا بها ازداد حرصًا على أن تصل، لا على أن تُنسب إليه.

والبلاغ النبوي نفسه كان مكلفًا.

فلم يكن ﷺ يوزع على الناس خبرًا مريحًا يضمن له محبتهم، بل كان يبلغ ما قد يعرضه للأذى، والمقاطعة، والسخرية، والخصومة، والتكذيب. ومع ذلك لم يكتم شيئًا مما أُمر به.

وهنا نرى أمانة من نوع آخر.

في الفصل السابق ظهرت أمانة جبريل عليه السلام في حمل الوحي.

وهنا تظهر أمانة محمد ﷺ في تبليغه.

كأن السورة ترسم الوحي وهو يعبر من مصدره الإلهي إلى الملك، ثم من الملك إلى الرسول البشري، ثم من الرسول إلى الناس، عبر سلسلة لا مكان فيها للخيانة.

وهذا يعطي القرآن في وعي المؤمن ثقله الكامل: ليس نصًا مجهول السند، ولا تأملات صوفية غائمة، ولا ذاكرة جماعية تراكمت، بل وحي بلّغه أمين إلى أمين.

ومن هنا تأتي قدسية النص لا من إعجابنا به فحسب، بل من مصدره.

نحن قد نعجب ببلاغة بشرية، ثم نختلف معها.

وقد نحب حكمة فيلسوف، ثم نرد عليه.

وقد ننتمي عاطفيًا إلى تراث أديب، ثم نرى خلله.

أما القرآن فموقعه مختلف، لأن المسألة ليست: ما رأيك في جمال العبارة؟ بل: هل هذا كلام الله؟

فإذا ثبت المصدر تغيّر نوع العلاقة تمامًا.

حينها لا يصبح المؤمن سيدًا على النص ينتقي منه ما يروق له، بل يصبح عبدًا يتلقى ويجتهد في الفهم ثم يخضع للحق الذي تبين له.

وهذا هو الفرق بين قارئ القرآن وقارئ كتاب بشري.

الكتّاب البشري موضوع على طاولتك.

أما القرآن، بمعناه الإيماني، فهو الذي يضعك أنت على طاولة السؤال.

لا تسأل الآية فقط: ماذا تعني؟

بل تدعها تسألك: ماذا صنعتَ بما علمت؟

ثم تقول السورة:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾.

وهنا تسقط تهمة أخرى.

لقد حاولت الجاهلية أن تصنع للقرآن تفسيرًا يناسب رغبتها في عدم التصديق، فإذا لم يكن جنونًا فلعله كهانة، وإذا لم يكن قول بشر عادي فلعله اتصال بعالم الشياطين.

لكن مضمون القرآن نفسه يهدم هذه الدعوى من داخلها.

أي شيطان هذا الذي يدعو إلى توحيد الله؟

أي شيطان يأمر بالصلاة والصدقة والعفة والعدل والرحمة وبر الوالدين؟

أي شيطان ينهى الإنسان عن الكبر والحسد والزنا والربا والظلم وسفك الدم؟

أي شيطان يجعل أعظم المعارك مع الشيطان نفسه؟

إن نسبة القرآن إلى الشيطان ليست فقط دعوى بلا دليل، بل دعوى يناقضها مضمون القرآن.

وهذه قاعدة عقلية يمكن أن تتعلمها: أحيانًا يكفي لفحص الدعوى أن ننظر إلى ما تستلزمه.

إذا قيل إن الشيطان هو مصدر القرآن، فهل يعقل أن يبني الشيطان كتابًا يجعل النجاة في مخالفته، ويكشف وسوسته، ويأمر بالاستعاذة منه، ويؤسس حياة كاملة على عبودية الله وحده؟

إن بعض الأكاذيب يسقط إذا أُعطي حقه من التفكير.

ولكن المشكلة أن الكذب الجماعي قد يعيش طويلًا إذا خدم مصلحة نفسية أو اجتماعية.

ولذلك لا يواجه القرآن كل شبهة بحث مطول، بل أحيانًا يضعها إلى جوار الحقيقة فيظهر تهافتها.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾.

إنه نفي حاسم.

فالوحي نقي في مصدره، نقي في طريقه، نقي في مبلّغه.

ولعل من جمال السياق أن وصف الشيطان هنا بـ ﴿رَجِيمٍ﴾ يقابل مقام جبريل عليه السلام الذي وُصف قبل قليل بـ ﴿كَرِيمٍ﴾.

هناك رسول كريم.

وهنا شيطان رجيم.

هناك أمين مطاع.

وهنا مطرود مبعد.

هناك قناة الوحي.

وهنا مصدر الوسوسة.

وكأن السورة تضع أمام الإنسان العالمين بوضوح شديد، ثم تقول له ضمنًا: لا تخلط بين النور ومصدر الظلمة.

وهذا الخلط يقع في حياة الإنسان أكثر مما يظن.

قد يسمي الوسوسة حرية.

والشهوة ضرورة.

والكبر كرامة.

والحق تشددًا.

والانحراف تطورًا.

والثبات جمودًا.

وتحدث أزمة الأسماء قبل أزمة الأفعال.

فالإنسان إذا استطاع أن يعيد تسمية الخطأ باسم جميل صار اقترافه أيسر على النفس.

والقرآن يعيد للأشياء أسماءها.

الشيطان شيطان.

والوحي وحي.

والحق حق.

والباطل باطل.

والجريمة ليست وجهة نظر إذا كان الله قد سماها جريمة.

وهذه القدرة على استعادة الأسماء الصحيحة جزء من الهداية؛ لأن فساد اللغة قد يسبق فساد الضمير. حين نسمي الظلم مصلحة، ونسمّي الخيانة ذكاءً، ونسمّي التنازل عن الحق مرونة في كل موضع، تبدأ النفس في قبول ما كانت تستحي منه.

ولذلك فإن القرآن لا يصلح السلوك فقط، بل يصلح قاموس القلب.

وفي هذه الآيات الأربع نرى كيف يضيق الخناق على التكذيب حتى لا يبقى له ملجأ عقلي سليم.

ليس الرسول ﷺ مجنونًا.

وقد رأى جبريل عليه السلام.

وليس كاتمًا للوحي.

وليس القرآن قول شيطان.

فماذا بقي؟

هنا تتغير طبيعة السؤال.

في البداية كان المكذب يحاول أن يسأل: ما هذا القرآن؟

أما بعد سقوط هذه التهم، فإن السؤال يعود إليه هو:

ما الذي يمنعك من اتباعه؟

وهنا تبدأ السورة إعداد القارئ للسؤال الذي سيجيء كالسهم:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

ذلك السؤال لم يأت فجأة.

لقد سبقه بناء كامل.

رأيتم نهاية الكون.

رأيتم نشر الصحف.

عرفتم مصير الإنسان.

عرفتم حامل الوحي في السماء.

وعرفتم المبلّغ على الأرض.

وسقطت تهمة الجنون.

وسقطت تهمة الشيطان.

فإذا لم يكن الطريق هنا، فأين؟

وهنا تكشف السورة عن أن مشكلة الإنسان النهائية ليست دائمًا مشكلة معرفة، بل مشكلة اتجاه.

قد يعرف ثم لا يتجه.

وقد يفهم ثم لا يسلك.

وقد تسقط حججه كلها، ويبقى قلبه يبحث عن طريق آخر لأنه لا يريد كلفة الاستقامة.

ومن هنا فإن أخطر مراحل الضلال ليست الجهل الخالص، بل الوعي الذي لا يريد أن يترتب عليه شيء.

أن تعرف أن هذا خطأ ثم تستمر.

أن تعلم أن هذا ظلم ثم تبحث له عن اسم ألطف.

أن ترى الحق ثم تؤجل الاستجابة لأن الحياة الحالية أكثر راحة.

حينها لا تعود المشكلة في غياب النور، بل في اختيار الاتجاه بعيدًا عنه.

وما أعظم الفرق بين إنسان يبحث عن الحق فيخطئ، وإنسان يراه ثم يبحث عن مهرب.

الأول قد تقوده أمانة البحث إلى الهداية.

أما الثاني فمشكلته أعمق، لأنه لا يحتاج دليلًا بقدر ما يحتاج شجاعة أخلاقية لاتباع الدليل.

وهذا ما تفعله سورة التكوير بالتكذيب: لا تصرخ في وجهه فقط، بل تجرّده من أقنعته.

تقول له: الرجل الذي تتهمه تعرفه.

والملك الذي جاءه أمين.

والرسالة التي يحملها تناقض الشيطان في كل جوهرها.

فما عذرك الآن؟

وهكذا يبدأ القرآن بتحويل المحاكمة من الوحي إلى المكذب نفسه.

لقد طالما وقف الإنسان أمام النص وكأنه القاضي:

أقبل هذا.

أرفض ذاك.

يعجبني هذا.

لا يناسبني ذاك.

ثم تأتي لحظة في السورة ينقلب فيها موضع الجلوس.

لا يعود القرآن متهمًا ينتظر حكم الإنسان.

بل يصبح الإنسان هو الذي عليه أن يجيب.

ومن هنا تمهد هذه الآيات للسؤال الأعظم في السورة:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

ليس: ماذا تقولون فقط؟

بل: أين تمضون؟

فالإنسان في النهاية لا يعيش بموقف فكري مجرد، وإنما يسير.

وكل اعتقاد طريق.

وكل رغبة طريق.

وكل طاعة طريق.

وكل معصية طريق.

وكل يوم خطوة.

وحين تسقط حجج التكذيب، لا يبقى أمام الإنسان إلا أن ينظر في اتجاه قدميه.

فالقرآن لم ينزل لكي ينتصر في مناظرة.

نزل لكي يغيّر وجهة الإنسان.

الفصل الخامس

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟

حين تتحول الحقيقة إلى طريق

تدبر في قوله تعالى:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

تبلغ سورة التكوير هنا نهايتها، لكنها لا تنتهي كما تنتهي الأخبار بعد اكتمال روايتها، بل تنتهي كما ينتهي الطريق إلى مفترق لا يستطيع السائر أن يقف عنده إلى الأبد؛ فقد عرضت السورة انهيار العالم الذي ظنه الإنسان ثابتًا، وفتحت أمامه صحيفته التي ظن أن كثيرًا مما فيها قد مضى، وأرته الجنة والجحيم، وثبّتت مصدر الوحي، وعرّفته بأمانة جبريل عليه السلام، وبرأت محمدًا ﷺ من افتراءات المكذبين، وأسقطت دعوى الجنون ودعوى الشيطان، ثم لم تقل له بعد هذا كله: والآن قد عرفت، فانصرف؛ بل أوقفت الإنسان نفسه في منتصف مسيره، ووجهت إليه سؤالًا ليس من الأسئلة التي تطلب معلومة، بل من الأسئلة التي تكشف مصيرًا:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

ليس السؤال: ماذا تقولون؟

ولا: ماذا تظنون؟

ولا حتى: هل اقتنعتم؟

إنه سؤال عن الذهاب.

وهذا وحده يكشف طبيعة القرآن في تصوره للإيمان؛ فالحقيقة في القرآن ليست معلومة توضع في العقل ثم يُغلق عليها، وإنما اتجاه تسلكه الحياة كلها. قد يعرف الإنسان أشياء كثيرة ولا يتحرك نحوها، وقد يقر بصدق فكرة ثم تبقى حياته متجهة في الطريق المعاكس لها؛ ولذلك كان السؤال الأخير بعد إقامة الحجة سؤالًا عن الحركة: إلى أين تمضي بعمرك، وإلى أي غاية تقودك رغباتك، وعلى أي طريق تتوزع أيامك، وما الجهة التي يتخذها قلبك كلما تعارض ما يريد الله مع ما تريد النفس؟

إن الإنسان ذاهب سواء فكر في ذلك أم لم يفكر؛ فالزمن لا يضع أحدًا على مقعد الانتظار، وكل نفس منذ لحظة ولادتها تتحرك نحو أجلها، وكل يوم ليس قطعة زمن تُضاف إلى العمر بقدر ما هو قطعة عمر تُنتزع منه. ونحن نستخدم عبارة "يمر الوقت" كأن الوقت هو الذي يمر بنا، والحقيقة أننا نحن الذين نمر، وأن الساعات قائمة في نظامها بينما أعمارنا تنقص معها، ولذلك فإن سؤال ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ يصيب الإنسان في أصل وجوده: أنت ذاهب لا محالة، ولكن هل تعرف إلى أين؟

وقد يكون أشد الضلال خطورةً هو أن يتحرك الإنسان كثيرًا بلا جهة. يملأ أيامه، يركض، يخطط، يجمع، يبني، يتنافس، يغضب، يخاصم، يسهر، يسافر، ينجح في عشرات المهمات، ثم لا يسأل نفسه السؤال الذي يعلو عليها جميعًا: إلى أين يحملني مجموع هذا كله؟ فقد يحقق الإنسان أهدافًا كثيرة ويخسر الغاية، وقد يصل إلى كل محطة رسمها لنفسه ثم يكتشف أنه كان يسير على الطريق الخطأ، وما أشد مأساة النجاح إذا كان نجاحًا في الاتجاه الخطأ.

ولذلك لم يقل القرآن هنا: فما الذي تفعلون؟ لأن الأفعال المتفرقة لا تكشف دائمًا الوجهة، أما "أين تذهبون" فتجمع العمر كله في خط واحد. الإنسان قد يفعل خيرًا وشرًا، ويصيب ويخطئ، ويضعف ويتوب، لكن هناك اتجاهًا غالبًا يتشكل من وراء التفاصيل كلها: هل يسير القلب إلى الله أم يبتعد؟ هل تصبح النفس مع الزمن أصدق وألين وأعدل وأشد خشية، أم تتحول تدريجيًا إلى كائن لا يرى إلا نفسه ومصلحته وشهوته؟ إن الطريق ليس فقط ما تمشيه القدم، بل ما تتشكل عليه الروح.

وسر السؤال أنه يأتي بعد أن سقطت المبررات. لو جاء في أول السورة لكان من الممكن أن يقول المكذب: لم أعرف، أو لم تتضح لي الحجة، أو اختلط علي مصدر القرآن، لكن السورة رتبت الطريق حتى وصلت إليه بعد إقامة البينة: هذا مصير الكون، وهذه صحيفة الإنسان، وهذا رسول الوحي، وهذا محمد ﷺ الذي عرفتموه، وليس القرآن قول شيطان رجيم. فإذا ذهبت بعد ذلك في غير طريقه، فليست المشكلة أن الطريق لم يظهر، بل أن إرادة أخرى سحبتك إلى سواه.

وهنا تظهر واحدة من أكثر الحقائق الإنسانية إيلامًا: قد لا يحتاج الإنسان إلى دليل جديد، بل إلى شجاعة جديدة. فقد يكون الدليل موجودًا، والقلب يعرفه، ولكن الاعتراف بالحقيقة سيكلفه تغييرًا لا يريده؛ وحينئذ يبدأ العقل في صناعة الأعذار للنفس، لا في البحث عن الحق. يريد أن يحتفظ بالشهوة فيبحث عن تأويل يطمئنه إليها، ويريد أن يبقى في موقعه فيعيد تعريف المبادئ حتى لا تضايقه، ويريد الانتقام فيسمي انتقامه عدلًا، ويريد الدنيا فيضع على تعلقه بها أسماء أرفع من حقيقته. وهكذا يتحول العقل الذي وهبه الله للإنسان كي يهتدي إلى محامٍ بارع يدافع عن الهوى.

لكن سؤال القرآن يخترق كل هذه المرافعات:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

قد تحسن تسمية طريقك، لكن إلى أين ينتهي؟

قد تزين الانحراف بمائة لفظة، لكن هل تغيّر الأسماءُ نهايات الطرق؟

قد تقول إنك حر، ولكن هل كل خروج عن أمر الله حرية، أم قد يكون انتقالًا من عبودية الله إلى عبودية الشهوة؟

قد تقول إنك اخترت نفسك، ولكن أي نفس اخترت: النفس التي خُلقت لتعرف ربها، أم النفس التي كلما أُطعمت رغبة فتحت فمًا لرغبة أخرى؟

إن القرآن لا يخاطب هنا عقلًا مجردًا، بل الإنسان بكل مركباته: هواه، وإرادته، وخوفه، وطموحه، وعاداته، وذكرياته، وضغط المجتمع عليه؛ ولهذا يأتي السؤال مفتوحًا: أين تذهبون؟ أي إلى أي جهة بعد هذا البيان يمكن للعقل أن يجد طريقًا أهدى؟

ثم يأتي الجواب الذي يعرّف القرآن تعريفًا جامعًا:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

ليس القرآن سرًا لنخبة مغلقة، ولا معرفة تخص قومًا دون قوم، ولا كتابًا يطلب من الإنسان أن ينفصل عن إنسانيته حتى يفهمه؛ إنه ذكر للعالمين، يعيد الإنسان إلى ما ينساه، ويوقظ فيه ما تخدره العادة، ويرده إلى الحقيقة التي تتعرض كل يوم للغبار تحت ازدحام الدنيا.

ولفظ الذكر من أعمق الألفاظ في وصف القرآن، لأن أكثر أزمات الإنسان ليست ناشئة من غياب الحقيقة تمامًا، بل من نسيانها. يعرف أن الموت حق ثم يعيش طويلًا كأنه لن يموت، ويعرف أن الظلم قبيح ثم يبرره إذا وافق مصلحته، ويعرف أن المال لا يبقى ثم يفني حياته في خدمته، ويعرف أن العمر قصير ثم يبدده فيما لا يستحق، ويعرف أن الله مطلع عليه ثم يتجدر في الخلوة إلى ما يستحي أن يراه عليه البشر. فالمعرفة وحدها لم تكن كافية، وكان الإنسان محتاجًا إلى ذكر يعيد المعلومة من برودة الذهن إلى حرارة الوعي.

القرآن لا يخبرك دائمًا بشيء لم تعرفه من قبل؛ أحيانًا يفعل ما هو أخطر: يجعلك ترى ما كنت تعرفه لكنك لم تكن تعيش على مقتضاه.

كم مرة قرأ الإنسان أن الدنيا فانية، ثم جاءه موت قريب منه فشعر أنه يسمع المعنى للمرة الأولى!

وكم مرة سمع أن الله رازق، ثم ضاق عليه سبب من أسباب الرزق فاكتشف مقدار ما كان قلبه متعلقًا بالسبب لا بالمسبب!

وكم مرة قرأ عن الحساب، ثم ارتكب ذنبًا في خلوة وتصرف في تلك اللحظة كأنه بلا حساب!

إن النسيان ليس عيب ذاكرة فقط، بل قد يكون مرضًا في ترتيب الوعي؛ ولذلك كان القرآن ذكرًا، وكان المؤمن محتاجًا إلى أن يعود إليه مرارًا، لا لأن الآيات تتغير، بل لأنه هو يتغير، ولأن الغبار يعود إلى القلب كما يعود إلى الأشياء التي تُترك طويلًا بلا تنظيف.

وفي قوله ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ انفتاح هائل في أفق الرسالة. فهذه السورة التي نزلت في مكة لا تحبس خطابها في قريش، ولا تجعل الحقيقة ابنة جغرافيا، وإنما تعلن أن الذكر للعالمين؛ لأن السؤال

الذي طرحته السورة ليس سؤال العربي وحده: أين تذهب؟ إنه سؤال الإنسان حيثما عاش ومتى عاش. تتغير الحضارات، وتتبدل أشكال المال، وتختلف الأزياء واللغات ووسائل النقل وأنظمة السياسة، لكن الإنسان يبقى معرضًا للأمراض الكبرى نفسها: الغفلة، والكبر، والخوف، والطمع، والظلم، وعبادة القوة، ونسيان الموت، والتعلق بالمحسوس، والفرار من سؤال المصير.

ولذلك فإن عالمية القرآن ليست مجرد اتساع جغرافي، بل قدرة على ملامسة البنية العميقة للإنسان.

يسافر الزمن، ويبقى السؤال.

يتطور العمران، ويبقى القلب محتاجًا إلى هداية.

يبلغ الإنسان القمر، ثم يعود إلى الأرض وهو لا يزال عاجزًا أحيانًا عن الانتصار على حسد صغير في صدره.

يصنع أدوات ترى أعماق المجرات، ولا تستطيع هذه الأدوات أن تجيب وحدها عن سؤال: لماذا يجب أن أكون عادلًا إذا استطعت أن أظلم وأنجو؟

يزداد علم الإنسان بالمادة، لكن المادة لا تعطيه وحدها معنى الحياة.

ولهذا يبقى الوحي حاجة لا يعوضها التقدم؛ فالعلم يخبر الإنسان كيف يفعل أشياء كثيرة، أما الوحي فيضع أمامه سؤالًا أعمق: لماذا تفعلها، ولأي غاية، وتحت أي ميزان أخلاقي؟

ثم تضيق دائرة الخطاب من العالمين إلى الفرد:

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾.

وهنا تظهر الكلمة التي يمكن أن نعدها ثمرة السورة كلها:

يستقيم.

يا لهذا الانتقال من تكوير الشمس إلى استقامة الإنسان.

من انقلاب الأفلاك إلى استقامة القلب.

من اضطراب الكون في يومه الأخير إلى تصحيح طريق الإنسان قبل أن يأتي ذلك اليوم.

كأن كل تلك الصور الهائلة لم تكن غايتها أن يخرج القارئ منها مبهورًا باللغة، بل أن يخرج مستقيمًا.

وهنا معيار مهم لقراءة القرآن: ليس السؤال بعد كل تدبر كم معنى جديدًا اكتشفنا، ولا كم صورة أدبية أثرت فينا، بل: ماذا فعلت الآية بمسيرنا؟

فإذا ازددنا إعجابًا بالنص ولم نزد اقترابًا من مراد الله، فقد أخذنا من جمال الطريق وتركنا وجهته.

والاستقامة لفظة تجمع الدين في حركته العملية؛ ليست نشوة عابرة، ولا موجة خوف مؤقتة، ولا اندفاعًا قصيرًا ينطفئ بعد أيام، بل أن يصبح اتجاه الإنسان في الجملة نحو الله. وقد يخطئ المستقيم، لكنه إذا انحرف عاد؛ لأن الاستقامة لا تعني عصمة البشر، وإنما تعني أن الطريق الذي اختاره القلب واحد، وأن الذنب عنده حادث يطلب الخروج منه لا وطن يتصالح معه.

إن الخط المستقيم ليس خطًا بلا عثرات بشرية، بل خط له قبلة واضحة.

ولهذا قال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ﴾.

لقد أثبت للإنسان مشيئةً واختيارًا.

أنت لست حجرًا يُدفع إلى الطريق دون إرادة.

هناك دعوة، وهناك بيان، وهناك قدرة على أن تتجه وتطلب وتسعى، ولهذا تقوم المسؤولية. لا معنى للثواب والعقاب إذا لم يكن في الإنسان اختيار يناسب التكليف، والقرآن يواجهه بهذه الإرادة: من شاء منكم أن يستقيم.

وهنا لا تستطيع النفس أن تختبئ تمامًا خلف الآخرين.

لا تقول: المجتمع.

ولا الأسرة.

ولا الثقافة.

ولا العصر.

نعم، لكل هذه الأشياء أثر، وقد تكون الضغوط ثقيلة، ويختلف مقدار الابتلاء من إنسان إلى آخر، والله أعدل وأعلم بعباده، لكن يبقى في عمق الإنسان موضع للمشيئة يُخاطَب من خلاله، ومن أجله كان التكليف.

وهذه من أعظم صور الكرامة التي منحها الله للإنسان: أن جعله محل خطاب واختيار، لا مجرد آلة تتحرك بلا معنى.

لكن هذه الكرامة قد تتحول إلى غرور إذا نسي الإنسان الحقيقة الأخيرة، ولذلك لا تنتهي السورة عند قوله ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾، حتى لا يظن أحد أن استقلال إرادته

مطلق، أو أن هدايته إنجاز شخصي انفصل به عن ربه، فتأتي خاتمة السورة لتضع المشيئة الإنسانية في موضعها داخل سلطان الله:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهنا يبلغ التوحيد تمامه.

أثبت لك مشيئتك، ثم أخبرك أنها لا تخرج عن مشيئته.

أعطاك إرادة، ولم يجعلك مستقلًا عن خالق الإرادة.

أمرك أن تسير، ثم علّمك أن القوة على السير منه.

فتح لك باب الاختيار، ثم منعك أن تتحول بهذا الاختيار إلى متأله صغير يتوهم أنه مكتفٍ بذاته.

وفي هذه الآية يتوازن الإنسان بين طرفين يهدم القرآن كليهما: بين الجبر الذي يسلبه المسؤولية، والغرور الذي يسلبه العبودية.

فأنت تشاء حقيقةً، ولذلك تُحاسب.

لكن مشيئتك مخلوقة واقعة تحت مشيئة الله، ولذلك تفتقر إليه.

وهذه الحقيقة إذا استقرت في القلب صنعت مزيجًا نادرًا من العمل والتواضع؛ يعمل المؤمن لأنه مأمور، ولا يغتر بعمله لأنه يعلم أن التوفيق فضل، ويجاهد نفسه لأنه مسؤول، ثم يسأل الله الهداية لأنه يعرف أنه لا يستغني عنه طرفة عين.

ولهذا لا يستطيع المؤمن بعد قراءة هذه الخاتمة أن يقول باستعلاء: أنا اهتديت بقوتي الخاصة.

وكأن الهداية بطولة فردية صنعها بعيدًا عن ربه.

بل يعرف أن في كل سجدة توفيقًا سبقها، وفي كل توبة رحمة فتحت بابها، وفي كل نجاة من فتنة لطفًا لا يراه، وفي كل مرة انصرف فيها قلبه عن معصية أسبابًا من الحفظ لو وكله الله فيها إلى نفسه لضاع.

وكم من إنسان كان أقوى منك علمًا ثم ضل.

وكم من إنسان عرف أكثر مما تعرف ثم فُتن.

وكم من قلب كان قريبًا ثم تقلب.

وحين يرى المؤمن هذه الوقائع لا يصيبه اليأس، وإنما تسقط من قلبه دعوى الأمن من مكر النفس، فيكثر من سؤال الثبات.

فالاستقامة ليست شهادة يحصل عليها المرء مرة ثم يحملها إلى قبره.

إنها افتقار مستمر.

أن تقول لله بمعنى حالك قبل لسانك: دلني عليك، وثبتني في طريقك، ولا تكلني إلى نفسي، واجعل إرادتي تميل إلى ما تحب.

وهنا نفهم لماذا جاء اسم الله في ختام السورة:

﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

لم يقل فقط: إلا أن يشاء الله، مع كفاية ذلك في أصل المعنى، بل ختم بالربوبية للعالمين، وكأن آخر كلمة تعود بنا إلى أول مشهد.

العالم الذي رأيناه يتكسر في مطلع السورة له رب.

الشمس لها رب.

النجوم لها رب.

الجبال لها رب.

البحار لها رب.

الوحوش لها رب.

الجنة والجحيم تحت أمره.

جبريل عبد من عباده.

ومحمد ﷺ رسول من رسله.

والإنسان ومشيئته داخل هذا الملك كله.

إنه رب العالمين.

وهكذا تستدير السورة في بناء عجيب: بدأت بانهيار العالم، وانتهت برب العالمين.

كأنها تقول: لا تعلق قلبك بالعالم؛ تعلّق برب العالم.

العالم يتغير.

والرب لا يزول.

الشمس تُكوّر.

والله حي لا يموت.

الجبال تُسيّر.

وملكه لا يتحول.

السماء تُكشط.

وسلطانه لا ينكشف عن ضعف، سبحانه وتعالى، بل تظهر للخلق يومئذ حقائق كانوا عنها غافلين.

وكل ما بدا لك عظيمًا في الوجود فهو في ملكه عبد.

وهذا أعظم تحرير يمكن أن تمنحه سورة التكوير للقلب: أن تخرجه من أسر الموجودات إلى عبودية رب الموجودات.

فإذا خفت من قوة بشرية، تذكرت أنها تعيش تحت سماء ستُكشط.

وإذا أغراك مال، تذكرت أن العشار ستعطل.

وإذا بهرَتك شهرة، تذكرت أن النجوم نفسها ستنكدِر.

وإذا شعرت أن ظلمًا أفلت من الحساب، تذكرت الموءودة التي سيفتح ملفها يوم القيامة.

وإذا استصغرت عملًا صالحًا، تذكرت الصحف المنشورة.

وإذا أوحشتك الطريق إلى الله، تذكرت الجنة المزلَفة.

وإذا شعرت أنك قادر على الثبات بنفسك، تذكرت: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

وإذا اضطربت بك الجهات، عاد إليك السؤال:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟

وقد تكون هذه الآية من أعظم الأسئلة التي ينبغي أن تلازم الإنسان في منعطفات عمره كلها. قبل قرار كبير: أين أذهب بهذا القرار؟ عند خصومة: أين يحملني هذا الغضب؟ عند فتنة مال: إلى أين يقودني هذا المكسب؟ عند رغبة في الشهرة: إلى أي قلب ستنتهي بي هذه الرغبة؟ عند ذنب يتكرر: هل هذا هو الطريق الذي أريد أن ألقى الله في نهايته؟ عند صحبة تشكلني: إلى أين يذهب بي هؤلاء؟ عند فكرة أتبناها: إلى أي تصور لله والإنسان والأخلاق تقودني؟

إن السؤال القرآني لا يضيّق الحياة، بل ينقذها من العبث.

فليس أسوأ من أن يقطع الإنسان آلاف الأميال في عمره ثم يكتشف أن وجهته لم تكن تستحق السفر.

والمؤمن لا يُطلب منه أن يترك الدنيا، بل أن يعرف طريقه فيها.

يعمل، ويبني، ويتزوج، ويكسب، ويكتب، ويفكر، ويسافر، ويفرح بالجمال، لكنه لا يجعل شيئًا من ذلك وجهته الأخيرة. إنها محطات في الطريق، وبعض الناس يضيع لأنه أقام في المحطة حتى نسي البلد الذي كان يقصده.

وهذا هو المرض الذي تعالجه سورة التكوير منذ أول آية: لقد سكن الإنسان العالم حتى نسي أن العالم نفسه مسافر.

فجاءت السورة لتريه الشمس وهي ترحل عن صورتها.

والنجوم وهي تفقد مواقعها.

والجبال وهي تسير.

والأموال وهي تُترك.

والسماء وهي تُكشط.

ثم قالت له، بعد أن جعلت كل شيء يتحرك:

وأنت أيضًا تتحرك.

فأين تذهب؟

ولا أظن أن في السورة سؤالًا يحتاج الإنسان أن يحمله إلى قلبه أكثر من هذا السؤال، لأنه لا يسمح لك بالعيش على هيئة أجزاء منفصلة، بل يجمع شتاتك في وجهة. وما قيمة علم لا يوجهك؟ وما قيمة مال لا يخدم غاية؟ وما قيمة عمر يمتلئ بالأحداث ثم يفرغ من المعنى؟

إن الاستقامة ليست أن تصبح الحياة بلا تعب، بل أن يصبح للتعب اتجاه.

وليست أن تختفي الأسئلة، بل أن يكون لها مرجع.

وليست أن تُحرم من رغباتك كلها، بل أن تُرتّب الرغبات فلا تصبح أدناها سيدًا على أعلاها.

وليست أن تفقد ذاتك في الطريق إلى الله، بل أن تجد ذاتك الحقيقية بعد أن تنقذها من عبودية كل ما سواه.

ثم إن خاتمة السورة تمنع المؤمن من أن يحوّل الاستقامة نفسها إلى مصدر كبر، فينظر إلى العاصي من علٍ كأنه صنع هدايته بيده، فكيف يتكبر من يعلم أنه لو لم يشأ الله له الهدى ما اهتدى؟ وكيف يحتقر مبتلى وهو لا يدري بأي لطف حُفظ هو من الابتلاء نفسه؟ إن معرفة مشيئة الله لا تقتل المسؤولية، لكنها تقتل العجب.

ومن هنا يصبح الدعاء ضرورة وجودية، لا طقسًا زائدًا على السلوك.

تعمل لأنك مأمور.

وتدعو لأنك فقير.

تجاهد لأن لك مشيئة.

وتستعين لأن مشيئتك تحت مشيئة الله.

تخطط ولا تتوكل على الخطة.

تأخذ بالسبب ولا تعبده.

تثق بوعد الله ولا تثق بنفسك ثقة تغنيك عنه.

وهذا هو التوازن الذي لا يمنحه إلا التوحيد.

لقد بدأت سورة التكوير بكون يفقد توازنه الظاهر، وانتهت بإنسان يُطلب منه أن يستقيم؛ وكأن الرسالة الباطنة في هذا البناء كله تقول: حين ينقلب كل شيء، لن ينجيك إلا أن تكون قد عرفت قبل الانقلاب أين تقف.

ستُكوّر الشمس؛ فلا تجعلها مركز وجودك.

ستُسير الجبال؛ فلا تبن يقينك على جبل.

ستُعطّل الأموال؛ فلا تجعل قيمتك فيما تملك.

ستُفتح الصحف؛ فراقب ما تكتب في صحيفتك.

ستُسعّر الجحيم؛ فلا تستهِن بطريقها.

ستُزلف الجنة؛ فلا تستكثر ثمن الطريق إليها.

وسيبقى السؤال حتى آخر نفس:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟

إن أعظم الضياع ليس أن يجهل الإنسان الطريق.

بل أن يرى الطريق، ثم يختار أن يمضي بعيدًا عنه.

وأعظم النجاة ليست أن يعرف الإنسان كل أسرار الكون.

بل أن يعرف رب الكون، ويعرف وجهته إليه، ثم يمضي في طريقه مفتقرًا إلى مشيئته، مستمسكًا بهدايته، حتى يبلغ نهاية العمر وقد صار سؤال السورة جوابًا في حياته:

إلى الله نمضي.

وبالله نهتدي.

وعلى هداه نستقيم.

ولا مشيئة لنا تنفع، ولا طريق لنا يستقيم، إلا أن يشاء الله، رب العالمين.

حِينَ يَخْرُجُ الْقَلْبُ مِنْ سُقُوطِ الْعَالَمِ

ما إن تُغلق سورة التكوير آخر أبوابها حتى يشعر القارئ أنه لم يخرج منها كما دخل؛ فهي ليست سورةً تكتفي بأن تعرض يوم القيامة أمام البصر، بل تعيد ترتيب البصر نفسه، وتعلّم القلب كيف يرى الدنيا قبل أن تنتهي، وكيف يزن الأشياء قبل أن تسقط أوزانها الزائفة، وكيف يسأل نفسه عن وجهته قبل أن يأتي يوم لا يعود فيه للسؤال معنى إلا بوصفه كشفًا لما اختاره الإنسان في حياته. ولهذا فإن أثر السورة لا ينبغي أن يبقى رهبةً من صور كونية بعيدة، بل أن يتحول إلى وعي جديد بالحاضر؛ لأن القرآن حين يخبرنا عن آخر العالم، فإنه لا يريد أن يجعلنا أسرى النهاية، بل أن يهبنا حسن البداية وحسن السير.

لقد بدأ كل شيء من الشمس.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

وكان يكفي هذا المطلع ليهدم في الإنسان جزءًا كبيرًا من غروره؛ فالشمس التي تبدو في تجربتنا اليومية أكثر الأشياء انتظامًا، ليست مالكةً لانتظامها، ولا ضامنةً لاستمرارها، ولا مستقلةً عن أمر الله. ثم تساقطت بعدها صور الثبات واحدة إثر أخرى: النجوم انكدرت، والجبال سُيرت، والعشار عُطلت، والوحوش حُشرت، والبحار سُجرت؛ حتى لم يبقَ شيء في المشهد يستطيع الإنسان أن يقول عنه: هذا سيظل كما هو.

وهذه وحدها مدرسة كاملة في التوحيد.

فكثير من تعلق الإنسان بالدنيا لا يأتي من إنكار الآخرة، بل من المبالغة في الثقة بما حوله. يرى دوام العادة فيتوهم دوام الوجود، ويرى المال في حسابه فيتوهم أن الأمان قد استقر، ويرى الجبل ثابتًا فيتوهم أن كل ما أسند إليه قلبه سيبقى، ثم تمر الأعوام ويكتشف أن أكثر ما سماه ثباتًا كان مجرد مهلة.

سورة التكوير تصحح هذا الوهم من جذره.

لا تقول لك: لا تملك.

ولا تقول: لا تحب.

ولا تقول: لا تعمل.

ولكنها تقول لك: لا تجعل شيئًا زائلًا يؤدي في قلبك وظيفة الخالد.

وهذا هو الفارق بين من يعيش في الدنيا ومن تعيش الدنيا فيه.

الأول يأخذ منها ما يعينه على الطريق.

والثاني يجعل الطريق كله يدور حول ما يأخذه منها.

ثم، بعد أن نُزعت من العالم مظاهر ثباته، ظهرت النفس.

وهنا كان التحول الأعظم في السورة: من الكون إلى الأخلاق، ومن حركة الأجرام إلى وزن الأفعال. وفجأة وجدنا الموءودة الصغيرة واقفة في وسط مشهد انهيار العالم كله، يسألها الله سؤالًا يجعل جريمة دفنتها الجاهلية تحت التراب حاضرةً يوم القيامة:

﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾.

وهنا علمنا أن القيامة ليست مجرد نهاية للأشياء، بل نهاية لإمكان الظلم أن يتخفى.

في الدنيا قد ينجو الجاني من الناس.

قد يملك السلطة.

قد يكتب روايته الخاصة.

قد تموت الضحية قبل أن تتكلم.

قد تضيع الوثائق.

قد يصمت الشهود.

قد يُسمّى القتل ضرورة، ويُسمّى الظلم سياسة، ويُسمّى سلب الحقوق مصلحة.

لكن كل هذه المسميات تنتهي أمام سؤال واحد من الله.

ولذلك فالإيمان بالقيامة ليس شأنًا فرديًا معزولًا عن أخلاق الإنسان مع الناس؛ إنه من أعظم أصول العدالة. من يؤمن بأن الموءودة ستُسأل لا يستطيع أن يحتقر دمًا بريئًا، ولا دمعة مظلوم، ولا حقًا صغيرًا سُلب من ضعيف؛ لأن ميزان الله لا يقيس الأشياء بمقدار الضجيج الذي يصنعه أصحابها في الدنيا.

وربما كان من أشد ما تعلمناه من الموءودة أن الله يستطيع أن يحفظ قضية من لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

وهذه طمأنينة لا تساويها طمأنينة للمظلوم.

فالإنسان قد يعجز عن استعادة صورته عند الناس، لكنه لا يحتاج أن يصحح ملفات الله.

وقد تموت الحقيقة في الذاكرة العامة، لكنها لا تموت في علم الله.

وقد يطوي التاريخ صفحة، لكن يوم القيامة ينشر كل ما طواه التاريخ.

ولهذا جاء بعدها:

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.

وفي نشر الصحف تغيّر معنى العمر كله؛ فالإنسان الذي يظن أن أيامه تتساقط وراءه يكتشف أن كثيرًا مما مضى كان في الحقيقة يتقدم أمامه. العمل لا يختفي حين ينقضي، وإنما يخرج من زمن الفعل إلى زمن الحفظ، ومن زمن الحفظ إلى زمن العرض.

يا لخطورة هذه الحقيقة.

كم من كلمة قلناها في لحظة ثم نسيها لساننا وبقي أثرها في قلب آخر!

وكم من موقف ظنناه صغيرًا وكان عند الله عظيمًا!

وكم من ذنب حسب صاحبه أن الليل قد أخفاه، فإذا به جزء من صحيفة تنتظر النشر!

وكم من معروف لم يتذكره صاحبه أصلًا، ثم يجده قد سبق إليه حيث كان أحوج ما يكون إليه!

لهذا فإن المؤمن لا يحتقر العمل لأن الناس لم يروه، ولا يستهين بالذنب لأن الناس لم يعرفوه.

إنه يعيش أمام سجل لا تصنعه ذاكرة البشر.

ثم ظهرت الجحيم والجنة.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾.

وفي هذا التقابل استعاد الوجود جديته الأخلاقية.

لم تعد القصة مجرد أن الإنسان يعيش ثم يموت وينتهي كل شيء؛ بل هناك مصيران، وهناك للأفعال نهايات، وهناك للخير والشر وزن لا تملكه مزاجات البشر. ولذلك فإن ذكر النار ليس عنفًا في الخطاب الإلهي، كما قد يتوهم من يقرأ الإنسان بمعزل عن مسؤوليته، بل هو إعلان أن الظلم ليس تفصيلًا عابرًا في هذا الكون، وأن الشر لا يُترك بلا حساب.

وكذلك الجنة ليست مجرد مكافأة حسية منفصلة عن الحياة الأخلاقية، بل هي المعنى الذي يمنح كثيرًا من التضحيات تفسيرها الأخير. كم من إنسان ترك شيئًا لله ولم يفهم الناس لماذا تركه، وصبر على طريق لم يصفق له أحد، وقاوم هوى كان يستطيع أن يناله في الخفاء، ثم مات دون أن يرى في الدنيا مقابلًا كاملًا لما صنع. لو كانت الدنيا هي الصفحة الأخيرة، لبقي في الوجود نقص لا يلتئم؛ لكن الجنة تقول إن الخير لا يُختزل في مردوده العاجل.

ثم جاءت الجملة التي جمعت السورة كلها في قلب الفرد:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾.

لم تقل: علمت الأمم.

ولا الجماعات.

ولا القبائل.

ولا الأحزاب.

ولا الطبقات.

قالت:

نفس.

ففي النهاية تسقط كثير من الأسماء التي عاش بها الإنسان بين الناس، ويبقى اسمه الأخلاقي الحقيقي عند الله.

هناك لا ينفع أن يقول: الجميع كانوا يفعلون.

ولا: هذا ما ورثناه.

ولا: كانت الظروف.

ولا: كنت أتبع فلانًا.

ولا: كان المجتمع هكذا.

سيكون هناك علم لا مهرب منه: ماذا أحضرت أنت؟

وهذه الآية تكفي وحدها لتأسيس محاسبة يومية عميقة، فالمؤمن لا ينتظر يوم القيامة ليعرف ما أحضر، بل يحاول أن يسأل نفسه الآن، قبل أن يصبح السؤال كشفًا لا يمكن التغيير بعده.

ما الذي أرسله اليوم أمامي؟

ماذا تركت في قلب إنسان؟

ما الذي ازداد في صحيفتي؟

ما الذي يحتاج إلى توبة قبل أن يصبح تاريخًا ثابتًا؟

ما الذي ينبغي أن أصلحه الآن بينما باب العمل مفتوح؟

وهنا تتجلى رحمة هائلة قد تختفي خلف رهبة السورة: إن الله أخبرك بما سيحدث قبل أن يحدث.

لم يفاجئك بنشر الصحف.

أخبرك عنها.

ولم يفاجئك بالحساب.

أنذرك.

ولم يفاجئك بأن العمل سيحضر.

قال لك ذلك وأنت ما تزال قادرًا على أن تغير ما ستحضر به.

فالوعيد في القرآن من وجهٍ آخر باب من أبواب الرحمة؛ لأنه معرفة مقدمة تمنح الإنسان فرصة النجاة.

ثم انتقلت السورة من مصير الإنسان إلى مصدر المعرفة بهذا المصير، حتى لا يبقى الإيمان بالآخرة قائمًا على انفعال مبهم. أقسم الله بالخنس الجوار الكنس، وبالليل إذا عسعس، وبالصبح إذا تنفس، ثم أقام في قلب السورة سند الوحي:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾.

وكأن السورة بعدما حركت الوجدان قالت للعقل: والآن اعرف لماذا نثق بهذا الخبر.

وهـذه من عظمـة القـرآن؛ لا يبني الإيمـان على الخـوف وحده، ولا على الانبهـار البلاغي وحده، بل يربط الشعور بالحجة، والرهبة بالمصدر، والجمال بالصدق.

فليس القرآن مجرد نص يدهشك.

إنه وحي يريد منك أن تسلم له بعد أن تعرف من أين جاء.

ومن هنا اكتمل الطريق بين أمين السماء وأمين الأرض؛ جبريل عليه السلام حامل الوحي، ومحمد ﷺ مبلغه للخلق.

ثم جاء الدفاع عن النبي ﷺ في كلمة لا تكاد تحتاج إلى برهان خارجي لأنها تستدعي تاريخًا كاملًا:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.

صاحبكم.

هذا الذي تعرفونه.

هذا الذي عاش بينكم.

هذا الذي لم تكتشفوا خلل عقله إلا بعد أن جاءكم بكلام يهدم خلل حياتكم.

والتهمة هنا تفضح أصحابها أكثر مما تصيب النبي ﷺ؛ لأن كثيرًا من الاتهامات لا تولد من ضعف الحقيقة، بل من عجز المخالف عن احتمالها. وكل عصر يستطيع أن يخترع أسماء جديدة للطريقة القديمة نفسها: إذا لم تستطع إسقاط الفكرة، فهاجم حاملها.

لكن القرآن لا يطيل الوقوف عند ضجيج التهمة، لأن القضية أكبر؛ لقد رأى محمد ﷺ جبريل بالأفق المبين، وما هو على الغيب بضنين، وما القرآن بقول شيطان رجيم.

ثم بعد إسقاط كل مهرب، جاء السؤال.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

ولعل هذه الآية هي القلب الذي تعود إليه كل طرق السورة.

الشمس ستُكوّر، فأين تذهبون؟

النجوم ستنكدِر، فأين تذهبون؟

الجبال ستُسيّر، فأين تذهبون؟

الصحف ستُنشر، فأين تذهبون؟

الجنة ستُقرّب، والنار ستُسعّر، فأين تذهبون؟

ثبت صدق الوحي، فأين تذهبون؟

عرفتم الرسول، فأين تذهبون؟

إنه سؤال لا يسمح للإنسان أن يحول الدين إلى قضية نظرية.

يمكنك أن تناقش كثيرًا، لكنك في النهاية تتحرك.

يمكنك أن تتردد، لكن الزمن لا يتردد معك.

يمكنك أن تؤجل القرار، لكن تأجيل القرار نفسه قرار، لأن العمر يتحرك أثناء التأجيل.

ومن هنا يصبح أهم ما يملكه الإنسان ليس مقدار سرعته، بل صحة وجهته.

قد يمشي البطيء في الطريق الصحيح فيصل، ويركض السريع في الاتجاه المعاكس فيزداد بعدًا بكل نجاح يحققه.

وما أكثر الناجحين في الوسائل الذين ضلوا في الغايات.

يملك أحدهم المال ولا يعرف لماذا يعيش.

يملك الشهرة ويعيش في خوف دائم من فقدانها.

يملك القدرة على الكلام ولا يملك شيئًا يستحق أن يقال.

يجمع الأسباب كلها ثم يفقد السبب الذي من أجله خُلق.

وسؤال القرآن يمزق هذه الغفلة:

إلى أين؟

ثم عرّف الوحي نفسه:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

إنه تذكير، لأن الإنسان نَسَّاء، ولأن الدنيا ماهرة في تغطية الحقائق بطبقات من الانشغال. لا يحتاج الإنسان كل يوم إلى حقيقة جديدة، بقدر ما يحتاج أن تستيقظ الحقيقة القديمة في قلبه من جديد.

الموت معروف.

لكننا ننساه.

قصر الدنيا معروف.

لكننا نبني عليها آمال الخلود.

ضعف الإنسان معروف.

لكننا نتكبر.

رقابة الله معلومة.

لكن الغفلة تجعل الخلوة تبدو بلا شاهد.

وهكذا يكون القرآن ذكرًا لأنه يوقظ الحقائق من سباتها داخل الإنسان.

ثم جاءت غاية الذكر:

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾.

وهنا انكشف المقصد كله.

سورة التكوير ليست عن نهاية الكون فقط.

إنها عن استقامة الإنسان قبل نهاية الكون.

ليست الغاية أن تحفظ تسلسل المشاهد.

ولا أن تعجب بالإيقاع.

ولا أن تتخيل شكل الشمس حين تكور.

الغاية أن يستقيم خطك أنت.

ويا لجمال المقابلة: الكون سيخرج عن نظامه المألوف يوم القيامة بأمر الله، وأنت مطلوب منك الآن أن تدخل في نظام العبودية قبل ذلك اليوم.

العالم سيتغير.

فلا تكن أنت متغيرًا مع كل هوى.

النجوم ستسقط.

فلا تسقط قيمك.

الجبال ستتحرك.

فلا تتحرك مبادئك مع كل مصلحة.

الأموال ستتعطل.

فلا تجعل قلبك معطلًا عن معرفة الله بسببها.

الصحف ستفتح.

فافتح الآن باب التوبة.

الجنة ستزلف.

فاقترب منها قبل أن تراها.

والاستقامة ليست كمالًا لا نقص فيه، فالإنسان بشر، يضعف، ويخطئ، ويقصر، ولكن الفرق بين المستقيم وغيره أن المستقيم يعرف الطريق الذي يعود إليه كلما انحرف. لا يجعل الذنب هوية، ولا يحول السقوط إلى مذهب، ولا يبرر الانحراف لكي يعيش معه مرتاحًا، بل يبقى في قلبه اتجاه أصلي إلى الله.

ثم لم تترك السورة الإنسان مفتونًا حتى باستقامته:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهنا ينكسر آخر صنم يمكن أن يولد بعد سقوط أصنام الدنيا: صنم النفس الصالحة حين تعجب بصلاحها.

فليس أخطر على الإنسان من أن ينجو من عبادة المال ثم يعبد عمله، أو ينجو من الكبر الدنيوي فيقع في كبر ديني. فجاءت خاتمة السورة لتقول له: حتى مشيئتك للهداية لا تستقل عن ربك.

أنت مسؤول، نعم.

وتشاء، نعم.

وتعمل، نعم.

لكن الفضل لله.

والتوفيق من الله.

والثبات بالله.

والقلب بين يديه سبحانه.

فلا تقل: أنا قوي.

قل: ربي قوّاني.

ولا تقل: أنا لم أفتن لأنني خير من غيري.

قل: حفظني الله بلطفه.

ولا تنظر إلى العاصي من شرفة العجب، بل من موضع عبد يخشى على نفسه ويرجو لأخيه الهداية.

هكذا تصنع الآية الأخيرة تواضعًا بعد الاستقامة، وافتقارًا بعد الإرادة، ودعاءً بعد العمل.

ثم تختم باسم جامع:

﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهنا تستقر السورة كلها.

العالم الذي انقلب في أولها له رب.

والإنسان الذي اختار في آخرها له رب.

والرسول له رب.

والملك له رب.

والجنة والنار تحت سلطان رب واحد.

وهذا هو الأمن الأخير الذي تمنحه سورة تبدو في ظاهرها مليئة بالانهيار: العالم قد ينهار، لكن رب العالم لا يزول.

وهنا يفهم القلب أن النجاة ليست أن يمنع الله عنك كل تغير، ولا أن يحفظ لك كل شيء أحببته، ولا أن تبقى حياتك مستقرة كما تريد؛ فهذه ليست سنّة الدنيا. النجاة الأعمق أن يبقى قلبك موصولًا بالله حين تتغير الأشياء.

قد تفقد مالًا ولا تضيع.

قد تفقد منصباً ولا تضيع.

قد تفقد مكانًا ولا تضيع.

قد يتبدل عالمك كله ولا تضيع.

إنما يبدأ الضياع حين يتبدل اتجاه القلب عن ربه.

وهنا يصبح سؤال التكوير سؤال الحياة كلها:

ما الذي ينبغي أن يبقى فيك إذا تغير كل شيء؟

يبقى التوحيد.

يبقى الصدق.

تبقى التقوى.

يبقى يقينك أن الله لا يظلم.

يبقى علمك أن الصحيفة لم تغلق بعد ما دمت حيًا.

يبقى الرجاء في أن التوبة تستطيع أن تبدل ما تحمله معك.

يبقى خوفك من أن تلقى الله بما لا تحب.

ويبقى دعاؤك أن يشاء الله لك الاستقامة حتى آخر الطريق.

إن سورة التكوير تهدم العالم الوهمي لتبني الإنسان الحقيقي.

تهدم وهم الدوام، لتبني معنى الآخرة.

تهدم هيبة المال، لتبني هيبة الحساب.

تهدم صمت المظلوم، لتبني يقين العدالة.

تهدم نسيان العمل، لتبني مسؤولية الصحيفة.

تهدم الشك في الوحي، لتبني الثقة بمصدر المعرفة.

تهدم التهم التي ألصقت بالرسول، لتضع الإنسان وجهًا لوجه أمام حجته.

ثم تهدم آخر أشكال التيه بسؤال واحد:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

ولعل أجمل ما يمكن أن يخرج به القلب من هذه السورة ألا يعود هذا السؤال آية يقرؤها فقط، بل ميزانًا يحمله معه في حياته.

إذا أحب، سأل: أين يأخذني هذا الحب؟

إذا غضب، سأل: إلى أين يقودني هذا الغضب؟

إذا كتب كلمة، سأل: إلى أي صحيفة أرسلها؟

إذا ظُلم، تذكر الموءودة فعرف أن ملف المظالم لم يغلق.

إذا ظَلم، خاف أن يكون في صحيفة غيره ما يدينه.

إذا رأى قوة متجبرة، تذكر الجبال حين تُسير.

إذا رأى مالًا يغريه، تذكر العشار حين تُعطل.

إذا رأى مشهورًا ملأ الدنيا ذكرًا، تذكر النجوم حين تنكدر.

إذا عصفت به فتنة، تذكر الجنة حين تُزلف والجحيم حين تُسعر.

إذا افتخر بطاعته، تذكر أن مشيئته نفسها تحت مشيئة الله.

وحينئذ لا تعود التكوير سورة عن اليوم الذي يفنى فيه العالم فحسب، بل تصبح سورةً تحرر الإنسان من أن يفنى قلبه قبل العالم.

فالقلوب قد تُكوّر قبل الشمس إذا انطفأ فيها نور الهداية.

وقد تنكدر أرواح قبل النجوم إذا فقدت وجهتها.

وقد تتحرك جبال اليقين في الإنسان إذا جعلها قائمةً على الأسباب لا على الله.

وقد تتعطل أعمار كاملة كما تتعطل العشار حين ينفقها أصحابها في جمع ما لن يحملوه معهم.

لكن القرآن جاء قبل ذلك كله.

جاء ليقول:

ما زال الوقت وقت استقامة.

وما زالت الصحيفة مفتوحة.

وما زال الذنب قابلًا للمحو بالتوبة.

وما زالت الحسنة قابلة للزيادة.

وما زال الطريق ظاهرًا.

وما زال السؤال ينتظر منك جوابًا بالأفعال، لا بالكلمات:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟

فليكن جواب العمر كله:

نذهب إلى الله.

لا لأننا نملك الطريق من دون هدايته، بل لأنه هدانا إليه.

ولا لأننا نثق بثبات نفوسنا، بل لأننا نستمد منه الثبات.

ولا لأن الدنيا لا تستحق شيئًا من العمل، بل لأنها أقصر من أن تكون الغاية.

نعيش فيها بقلوب لا تخدعها شمسها، لأنها تعرف أنها ستُكوّر.

ولا تخدعها نجومها، لأنها تعرف أنها ستنكدِر.

ولا تخدعها جبالها، لأنها تعرف أنها ستُسيّر.

ولا يخدعها المال، لأنها تعرف أنه سيُعطل.

ولا يخدعها النسيان، لأنها تعرف أن الصحف ستُنشر.

ولا يهزمها الظلم، لأنها تعرف أن الموءودة ستُسأل.

ولا يرهقها طريق الطاعة، لأنها تعرف أن الجنة ستُزلف.

ولا يغرُّها عملُها، لأنها تعرف:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهكذا تنتهي سورة التكوير كما ينبغي أن تبدأ حياة المؤمن:

أن يسقط من قلبه وهم العالم،

ويبقى فيه رب العالمين.